21 متر مربع

رواية

قيدُ حياة

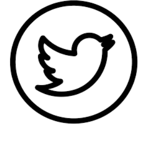
ولاء خليل

الكتـــــاب: ٢١ متر مربع: قيد حياة
اسم المؤلفـــة: ولاء خليل
تصميم الغلاف: ريهام البلتاجي
التدقيق اللغوي: ريهام الغنام
الطبعــــة: أبريل 2021
رقـم الإيـداع: 2021 / 5989
الترقيـم الدولـي: 3 - 380 - 779 - 977 - 978
الموقــــع: www.ibda3eg.com

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله
dreidibrahim@gmail.com

للتواصل بخصوص النشر:
info@ibda3eg.com
publishing@ibda3eg.com
للتواصل بخصوص المبيعات
00201004022774

العنوان: 10 ش هدى شعـــراوي، وســط البـــلد، القاهــرة
هاتف: 0223909119 - موبايل: 01001631173
البريد الإلكتروني: info@ibda3eg.com


dar__ibda3


ibda3-tp


dar__ibda3

21 متر مربع

رواية

قيدُ حياة

ولاء خليل



مقدمة

قلوب هادئة ظاهريًّا؛ بينما تحمل في داخلها الكثير من العواصف والبراكين الثائرة، والتي تجتاح كل من اقترب منها في مكر، تلتف حوله في خبثٍ خفيٍّ ثم تدمره في بطءٍ ممتع، تنتشي مع كل قطرة ألمٍ أو نظرةٍ خاضعة من ضحاياها، تتلذذ بإشعارهم بالمذلة والقهر، ودائمًا ما كان هناك القليل من الثواب مع الكثير من العقاب كقطرة ماءٍ سقطت قسرًا فوق فم ظمآن، يكاد يفقد حياته لفرط العطش، لقد سقطت في عالمٍ ليخونها حظها في لحظةٍ غاشمة، وتتخلى عنها دنياها، كانت كندفة ثلجٍ نقية ساطعة، ألقيت في مشروبٍ ساخن مظلم، فأذابها بين قطراته ليمحو هويتها وكيانها، وتتحول إلى سائلٍ مميت، تقضي على حياته وحياتها..

*****

وضع كلتا يديه في جيبيه ليتفحص المكان بعين خبيرٍ مخضرم، يفحص كل ما تقع عليه عيناه في حرصٍ شديد، ومن حوله يقف رجال الشرطة، ينتظرون أوامره..

-الباب سليم يا (عمرو) والشبابيك مقفولة، مفيش عنف ولا حاجة

مبهدلة ڤي الشقة.

أومأ أحد الضباط المرافقين له إيجابًا ثم قال:

-مظبوط يا (ماجد) باشا.. الجيران اللي بلغوا يا فندم بيقولوا إنها مراته.

-مفيش حاجة مؤكدة يا (عمرو).. إحنا لسه بنقول يا هادي، يا عالم إيه اللي هيظهر جديد.

قالها الرائد (ماجد عبد السلام) رئيس المباحث حين دلف إلى غرفة النوم ليشاهد الجثة الراقدة أمامه، والمقيدة تمامًا بالفراش بواسطة سلاسل حديدية، وفيها عدة جروح مضمدة بـ (شاش) طبي لكن بطريقة غير احترافية، وطعنات ڤي البطن والصدر، وآثار حروق ڤي أماكن متفرقة، كما أن عضوه الذكري مبتور كليًّا، وبجواره خبير الطب الشرعي، يفحص جثة المجني عليه عن قرب ليوجه (ماجد) سؤاله إلى الضابط (كمال) الواقف خلفه قائلًا:

-ده مش حد بيقتل قتل عادي، ده حد بينتقم بغِل وحقد يا (كمال).. الراجل مفيهوش حتة سليمة.

أجاب (كمال) ڤي تأثرٍ قائلًا:

-فعلًا يا (ماجد) باشا، الوضع صعب.

رفع (ماجد) أحد حاجبيه ڤي استنكارٍ، وعلى فمه ابتسامة ماكرة قائلًا:

-ومالك بتقولها وانت هتعيط كده ليه يا (كمال)؟! هي دي أول مرة نشوف جثث متشرحة؟!.. لا تكون انت اللي عملتها يا (كمال)!.. اقبض عليه يا (عمرو).

ليبتسم (كمال) مازحًا:

-جرى إيه يا (ماجد) باشا، انت هتلبسني ولا إيه؟! ده أنا حبيبك.

ليضحك الجميع، ويقاطعهم الطبيب الشرعي (دكتور أكرم) حين وقف قائلًا:

-عندك حق يا (ماجد) باشا، فعلًا ده حد محدد بالظبط أكتر أماكن مؤلمة في الجسم، وكمان مركز على الأماكن الخاصة.

ليقاطعه (ماجد) متسائلًا:

-يعني تفتكر فعلًا إنها ممكن تكون مراته؟

أجاب (أكرم) في سخريةٍ قائلًا:

- احتمال كبير، الستات مفترية، توقع منهم أي حاجة.

لتتعالى ضحكات (ماجد) حين خرج من غرفة النوم (موقع الجريمة) إلى الردهة حيث يقف أحد الجيران، والذي أبلغ الشرطة، ليوجه إليه (ماجد) الحديث قائلًا:

- أستاذ (محمود).. حضرتك قلت لي انكوا سمعتوا صوت خبط جامد، الكلام ده كان الساعة كام بالضبط؟

أجابه (محمود) - رجل في عقده الرابع، يبدو عليه الاتزان - قائلًا:

-أيوه يا فندم، إحنا كنا نايمين وفجأة سمعنا صوت خبط وتكسير وضحك عالي حوالي الساعة ستة الصبح، صحينا مفزوعين من النوم، لقينا باب الشقة مفتوح والمرحوم زي ما حضرتك شايف كده، بلغنا على طول.

أومأ (ماجد) قائلًا:

-وإيه اللي خلاكوا تشكوا في مراته؟

أجابه (محمود) مؤكدًا:

-شفناها يا فندم، كانت بتضحك ضحك هستيري وبتجري ع السلم، والأستاذ (علي) جارنا شافها وجري وراها بس للأسف ملحقهاش!

نظر (ماجد) إلى (عمرو) ممازحًا:

-قلت لي فرحك الأسبوع الجاي يا (عمرو)؟ الغيه.. خلاص مفيش أفراح، الجيل الجديد كله أهوه بيقتل ويجري.

ابتسم (عمرو) مرددًا:

-ربنا يستر يا فندم.

انحنى (ماجد) ليفحص أحد الصناديق الكبيرة الموضوعة أرضًا ثم ارتدى القفازين محاولًا فتحه، نقل ناظريه إلى (علي) رجل في أواخر عقده الثالث، قمحي البشرة، متوسط الطول، يرتدي سترة وبنطالًا، باغته (ماجد) في نبرةٍ فكاهية قائلًا:

-إزيك يا أستاذ (علي).. ينفع اللي بيحصل ده؟ ازاي متلحقهاش؟!

ليجيبه على استحياءٍ قائلًا:

-والله شكلي عجزت خلاص يا فندم.

-يا راجل متقولش كده، انت بتفَوِّل في وشي ولا إيه؟!

ليضحك (ماجد) مع آخر حروفه، ويعود موجهًا حديثه مرة أخرى إلى (محمود) حين فتح الصندوق في حذرٍ قائلًا:

-طيب ما ممكن يا أستاذ (محمود) يكون حد دخل عليهم، عمل اللي عمله، ومراته مثلًا متحملتش المنظر، جالها انهيار عصبي.

أجاب (محمود) في استنكارٍ قائلًا:

-بس يا فندم، هدومها كان عليها دم، وخافت لما نده عليها الأستاذ (علي) وجريت بسرعة و....

قاطعه (ماجد) متسائلًا:

-قولي يا أستاذ (محمود).. سمعتوا قبل كده خناقات بين المجني عليه ومراته أو انها كانت ست مش كويسة مثلًا؟.. وهل كان فيه حد بيزورهم باستمرار، قرايبهم أو انتوا حتى باعتباركوا جيران؟

أجاب (محمود) في نبرةٍ واثقة قائلًا:

-أبدًا يا فندم، من يوم ما سكنوا هنا، من سنة تقريبًا، ومحدش سمع صوتهم ولا يعرف عنهم أي حاجة، ومراته عمرها ما خرجت من البيت غير مرة أو مرتين، وفيه مرة واحدة بس سمعنا صرخة جامدة جاية من شقتهم، لحظة وكل شيء رجع هادي زي ما كان، غير إن

جوزها كان في حاله قوي حتى السلام مكانش بيرده على حد.
رفع (ماجد) أحد حاجبيه مستنكرًا ثم قال:
-غريبة! معنى كده المدام عندك عمرها ما كلمتها مثلًا أو طلبت منها شيء أو العكس زي أي جيران عاديين؟
أجابه (محمود) نافيًا:
-خالص يا فندم، هي مرة واحدة خبطت علينا، مراتي فتحت لها، وكان باين عليها التوتر، أو قلقانة من حاجة، وقبل ما تقول أي كلمة، جوزها كان طالع على السلم فجأة، ولما شافته جريت على شقتها وكانت خايفة ومتكلمتش، ومراتي دخلت وقفلت الباب على طول، ومن يومها قلت لمراتي خلينا في حالنا وهما في حالهم.
توقف (ماجد) عما كان يفعله متعمدًا حين رأى نظرة فضولية في عيني (محمود) لمعرفة ما في داخل الصندوق ثم قال:
-ماشي يا أستاذ (محمود).. شكرًا ليك، تعبناك معانا، اتفضل انت دلوقت وحنبقى نبعت لك لو مش حنزعجك عشان نقفل المحضر.
أجابه (محمود) قائلًا:
-تحت أمرك يا فندم في أي وقت.
تركه (ماجد) يذهب، وقام بفتح الصندوق، وقد هاله ما رأى ليصدح صوته قائلًا:
-الله أكبر! إيه ده؟!!

×××××

تائهة.. مرتعبة.. مرتجفة.. جاحظة العينين.. متعبة، شاحبة الوجه كأنها خرجت لتوها من أحد القبور! تحاول الاختباء لتخفي ثيابها الغارقة في الدماء حتى وجدت ركنًا صغيرًا مظلمًا، قبعت فيه، تحتضن ساقيها بذراعيها، تجذبهما كأنها تحتمي بهما، جسدها يرتعش في خوفٍ حتى غرقت في نومٍ عميق، لم تهنأ بمثله منذ سنوات!

وفي صباح اليوم التالي، فتحت عينيها لترى مجموعة من الناس يلتفون حولها، بينهم بعض رجال الشرطة، استقامت في فزعٍ وجسدها يرتجف، ارتدت إلى الخلف في هلعٍ حتى التصقت بالحائط، تكاد عيناها تخرجان من محجريها لتهمس في خوفٍ قائلة:

-عاوزين مني إيه؟.. ابعدوا عني بقا.

حضر الرائد (ماجد) بعدما أبلغ صاحب محل أدوات منزلية عن سيدة نائمة في زاوية متجره، وثيابها ملطخة بالدماء مما جعله يشك في أمرها.

اقترب منها (ماجد) وقد شعر أن حالتها غير طبيعية قائلًا:

-متخافيش، محدش حيأذيكِ.. حضرتك مدام (حياة).. مش كده؟!

بعثرت نظراتها بينهم في خوفٍ ولم تجبه، فأمر رجاله باصطحابها إلى قسم الشرطة، وقد تم وضعها في زنزانة منفردة حتى يتم تحويلها إلى النيابة العامة.

بعد مرور ثلاثة أيام

دخل أحد أفراد الأمن غرفة مكتب الرائد (ماجد) قائلًا:

-تقرير الطب الشرعي وصل يا فندم.

اعتدل (ماجد) في جلسته، وأخذ يقرأ التقرير قائلًا:

-بصمات مراته على (الكتر) اللي اتقتل بيه.. شفرة حادة خاصة بالأعمال المكتبية.. ومع المشارط الطبية وعلى جسم جوزها كمان، والدم اللي على هدومها دمه.

ثم أكمل واضعًا التقرير داخل ملف القضية:

-تمام.. كده شغلنا خلص، النيابة بقا تشوف شغلها.. اكتب يا ابني: «أمرنا نحن (ماجد عبد السلام) رئيس مباحث الهرم، بتحويل ملف المتهمة (حياة حسين عبد السلام فاضل) إلى النيابة العامة، ويغلق المحضر.»

*****

في سرايا النيابة

بعدما تم ترحيلها، قامت النيابة بتوكيل أحد المحامين للدفاع عنها حيث لم يستدل على أهل لها أو عنوان، خصوصًا بعدما أصابتها حالات هستيرية أثناء التحقيق، حضر المحامي الموكل بقضيتها، والذي يعمل في أحد مكاتب كبار المحامين في القاهرة، لكنه صُدم حين قرأ ملف القضية، وخصوصًا حين تأكد من هويتها، طلب من وكيل النيابة أن

ينفرد بها لبضع لحظات، فوافق وتركهما برفقة أحد العساكر الذي يقف في أحد الأركان.. جلس أمامها محدقًا في ذهولٍ وألمٍ ثم قال:

-(حياة)!! أنا مش مصدق! إيه اللي عمل فيكِ كده؟! (حياة) انتِ عارفة أنا مين؟

نظرت إليه نظرة مرتعبة ثم ابتعدت عنه مرتجفة، كاد يقسم أنها في عالمٍ آخر، أما هو، فلم يمنع نفسه من التفكير فيما حدث لها فقط في أربع سنواتٍ حتى تصبح هكذا! وجه إليها الحديث مرة أخرى لعله يصل إلى شيءٍ قائلًا:

-طيب مش لازم تعرفي أنا مين، بس لازم تساعديني.. لازم أخرجك من هنا بأي طريقة يا (حياة).

اقترب ليربت على كتفها لكنها أخرجت صرخة لتبتعد أكثر ويعود هو إلى كرسيه في أسًى ليكمل قائلًا:

-متخافيش يا (حياة).. أنا مش حأذيكِ ولا حد حيقدر يأذيكِ تاني، أنا هنا عشان أساعدك بس أرجوكِ انتِ كمان ساعديني، قولي أي حاجة، إيه اللي حصل بالظبط؟ وليه قتلتي جوزك؟

ارتعدت أكثر لتصرخ قائلة:

-عشان حيوان.. حيوان!!

حتى خرجت عن السيطرة، وانتابتها حالة من الهياج العصبي حين صُدِم من إجابتها، فهو يعلم أن زوجها كان ابن خالتها، وأنها كانت

تعيش معهما في بيتٍ واحد قبل أن يتزوجها، وأنها كانت تشعر بالأمان بينهما، ولذلك فقد أرجأ رد فعلها إلى حالتها النفسية الواضحة، فقام بتقديم طلبٍ لتحويلها إلى قسم (٨ غرب) التابع لمستشفى العباسية للتأكد من عدم سلامة قواها العقلية أثناء ارتكاب الجريمة، ومن ناحيةٍ أخرى، قام بجمع المستندات التي قد تساعدها في القضية..

*****

بعد مرور بضعة أيامٍ من التحقيق

مقيدة في فراشها بأغلالٍ قد اعتادتها، ترى حولها هذا الضوء الأحمر، تترقب عذابها الذي تنتظره كل يومٍ ليقترب منها فجأة محدقًا إلى ملامحها في غضبٍ هامسًا في نبرةٍ حادة حين مسد شعرها ووجنتيها كعادته قائلًا:

-فاكرة لما قلت لك مش حينقذك مني إلا موتي؟

اقترب منها أكثر هامسًا ليثير الفزع داخلها:

-أنا كنت بكذب عليكِ.. حتى الموت مخلصكيش مني.. أنا قدامك أهوه وحفضل معاكِ على طول.

لتستيقظ صارخة:

-لااااااااااااا!!

حضر إثر سماع صوتها الطبيب الموكل بمتابعتها ومساعدوه، حاول السيطرة عليها حتى تُنهي المساعدة تحضير الإبرة المهدئة لها قائلًا:

-اهدي يا مدام (حياة).. متخافيش انتِ في أمان.
لكنها لم تتوقف عن الصراخ كأنها لم تسمعه ثم قالت:
-ابعدوا عني.. عاوزين مني إيه؟.. مش كفاية هو واللي عمله فيا.. أنا قتلته! آه قتلته عشان أرتاح من شره، وبرضه مش عايز يسيبني! مش عاوز يبعد عني ليه؟!!!
أمسك بها مساعدوه، وقام بإعطائها إبرة لتغفو في عمق.. جلس بجوارها، يحدق إلى ملامحها المنهكة، يفحص ما انكشف من جسدها الموشوم بآثار تعذيبٍ وحروق، ما الذي تعرضت له تلك السيدة حتى جاءت إلى هذه الغرفة التي لا تتعدى مساحتها اثنين وعشرين متر مربع في قسم (٨ غرب).. قسم علاج المسجونين والمحبوسين على ذمة القضايا، المختلين عقليًّا، أو من يعانون من مرضٍ نفسي، في مستشفى العباسية!
منذ أن أحالتها النيابة العامة إلى المشفى، ولم يستطع أن يتوصل معها إلى حل، لا يوجد رد فعل غير مدة طويلة من الصمت والهذيان والتشنجات التي أثارت شكوكه خصوصًا عندما قام بإعطائها إبرة مهدئة للمرة الأولى لكنها لم تجدِ معها نفعًا، فقام بإرسال بعض قطرات من دمها للتحليل ظنًّا منه أن يكون قد حدث ذلك إثر تعاطيها المخدرات لكن نتيجة التحليل لم تنصفه في أول مرة، ولم يظهر فيها شيء، والآن في انتظار نتيجة التحليل للمرة الثالثة، فقد أصر على

إنكار النتائج السلبية الفائتة، خصوصًا أن أعراض الإدمان تظهر عليها جلية، وفي الوقت نفسه، قد فشلت محاولاته معها للإفصاح عن شيءٍ إلا أنه رأى رسمتين تعبران عن القهر الذي عاشته، فكل ما رسمته يرمز إلى أدوات تعذيبٍ جنسية، ورجلٍ غاضب يمسك بسوط يوجهه إلى سيدة مقيدة في أوضاعٍ مختلفة في كل مرة مما جعله يدرك أنها تلك السيدة، وأن زوجها كان رجلًا ساديًّا لتذوق شتى ألوان العذاب مما جعلها تصاب باضطراباتٍ نفسية عدة، جعلتها تقرر قتله بتلك الطريقة البشعة!

*****

قبل عامين

فتاة جميلة رقيقة هادئة الطباع، في نهاية المرحلة الثانوية، تجلس على المقعد الأمامي داخل صفها، تستمع إلى شرح معلمها في انتباهٍ، فشغفها الدراسي وتشجيع والديها يدعمانها لنهل المزيد من العلم كي تصل إلى حلمها في الالتحاق بكلية من كليات القمة التي تطمح لها وخصوصًا منذ تجربتها المريرة حين اضطرت للتأخر الدراسي عن زملائها لعامين كاملين وعدم اللحاق بالامتحان نظرًا لمرضٍ شديد أصابها في المرحلة الابتدائية، ومنذ ذلك الوقت، قررت أن تعوض ما فاتها ولا تستسلم لشيء.. استأذنت الأخصائية الاجتماعية للدخول ثم دخلت، وقد تعجب جميع من في الصف وأولهم المُعلم حين طلبت منه

اصطحاب (حياة) إلى مكتبها لأمرٍ مهم، فـ (حياة) طالبة منطوية، ولم يشتكِ منها أحد قط، فهي تهتم فقط بدراستها كما أنها هادئة للغاية لا تثير المشاكل ولا تحب الظهور كغيرها من الطالبات، ذهبت (حياة) مع الأخصائية في حيرةٍ شديدة، وقد تسلل بعض الخوف إلى قلبها الصغير قائلة:

-فيه حاجة يا مس (هدى)؟ أنا عملت حاجة غلط؟!

قامت الأخصائية (هدى) باحتضانها في حزنٍ، لا تدري كيف تخبرها هذا الخبر المؤسف ثم قالت:

-أبدًا يا حبيبتي، بس.. عاوزة أقولك حاجة واوعديني متقلقيش، كله حيبقى تمام بإذن الله.

ارتعدت (حياة) تلقائيًّا ليتمكن الخوف منها أكثر من ذي قبل قائلة:

- مس (هدى).. حضرتك قلقتيني، خير فيه إيه؟!

تحدثت (هدي) في ترددٍ، وقد هداها عقلها إلى إخفاء الجزء الأكبر من الحقيقة قائلة:

-أاا.. أصل.. باباكِ ومامتك عملوا حادثة بالعربية، وهما حاليًّا في المستشفى، وأنا أخدت إذن عشان أخدك ونروح لهم.

لتنهار (حياة) حين اكتشفت أن والديها قد فارقا الحياة، وأيضًا شقيقها الصغير، الذي كان معهما في السيارة أثناء الحادث، وأنها أصبحت وحيدة في تلك الدنيا الغادرة! كل شيءٍ مرَّ سريعًا حتى أنه لم

يتسن لها النظر إلى وجوه أفراد عائلتها قبل دخولهم المشرحة، وحين خروجهم منها ليقوم جهاز الشرطة بدفنهم بعدما أخبرتهم (حياة) أن جميع أقاربها في بلدة بعيدة، والروابط بينهم منقطعة، فأمر جهاز الشرطة بدفنهم في مقابر الصدقات، حينها كاد صراخها يهز مبنى المشفى لتسقط مغشيًّا عليها في حضن السيدة (كريمة) أخصائية المدرسة، والتي أصرت على البقاء بجوارها..

اعتادت زيارة خالتها (منيرة) - التي تعيش مع زوجها (مُسعد) وولدها (سيف) – برفقة والدتها في منزلها الكبير في شارع الهرم، ولقد علمت أن هناك مشكلات دائمة مع ولدها (سيف) الذي لا يتقبل زوج أمه حتى بعد إصابته بالشلل وجلوسه على كرسيٍّ متحرك، كما أنه يعامل والدته معاملة سيئة، وعلى الرغم من أنه طبيب جراحة ناجح ووسيم إلا أنه سيئ الخُلق!

*****

في إحدى القرى التابعة لإحدى محافظات الوجه البحري

كانت عائلة والد (حياة) قد تلقت خبر موته وموت زوجته وولده إثر انقلاب سيارتهم، وقد كان ابن عم والدها هو أقرب شخصٍ له، وبمثابة أخيه الأصغر خصوصًا أن والدها لم يكن له أشقاء، لكنه لم يشعر قط بالوحدة نظرًا لوجود ابن عمه الذي شاركه طفولته وشبابه، لكن الأيام تقلب الأشخاص والقلوب كتقلب الحليب في القدر، بعضه

يلتصق فيحترق أو يعلو تاركًا جذوره، فيسقط بلا رجعة، ولا ينفع إلا ما بقي في القدر، ودائمًا هم قليل!

جلس (حسن) - الذي كانت تناديه (حياة) في طفولتها (عمي) - على الأريكة أمام زوجته باكيًا في قهرٍ ثم قال:

-(حسين) مات من غير ما اشوفه ولا ادفنه يا (مديحة).. مات هو وأهل بيته كلهم واتدفن متغرب في بلد مش بلده ولا وسط أهله.

أجابته زوجته في حزنٍ قائلة:

-معلش يا خويا، قدرهم كده، ربنا يرحمهم يا رب، يا ترى بنته عامله إيه دلوقت؟

-آه والله يا (مديحة) كويس إنك فتحتي الموضوع، أنا كنت بقول البت خلاص مبقاش ليها حد واحنا أولى بيها من خالتها، إيه رأيك أجيبها تعيش معانا هنا؟

-تجيب مين يا ابو (حمزة) تعيش هنا؟!

قالتها (مديحة) زوجته وقد أخذت وضعية الهجوم التي يعرفها جيدًا، فأراد تهدئتها وإقناعها قائلًا:

-يا (مديحة) البت بقت يتيمة وملهاش حد، يا شيخة ثواب لله، الدار واسعة أهيه، ويعني هي لقمتها ونومتها اللي حيعجزونا؟!

قطبت جبينها لتعبر عن رفضها قائلة:

-شوف يا ابو (حمزة).. أولًا انت تعرف البنت دي أصلًا لو شفتها؟ ده

انت آخر مرة شفتها فيها كان عندها سبع سنين، دلوقت بقت عروسة، عاوزني أقعد عروسة في بيت بين ابني الراجل وجوزي، الناس تقول إيه؟! وكمان دي في آخر سنة في الثانوية على كلامك، يعني دروس وجامعة داخلة عليها ومصاريف، حنجيب لها ده كله منين؟! واحنا عندنا عيال صغيرة غير (حمزة) اللي لسه متخرج وعاوز يفتح مكتب ويشوف حياته ويتجوز وهم قد كده.

شعر (حسن) بغصة في حلقه، فمعظم ما قالته صحيحًا خصوصًا مع حالتهم المادية التي لا تتسع لتحمل المزيد من الأعباء، شعرت بالانتصار لتكمل حديثها قائلة:

-يا (حسن).. أنا عارفة ان البنت صعبانة عليك وعليا أنا كمان واللّه، بس هي حتكون عند خالتها (الحاجة منيرة) مرتاحة ومبسوطة وحتعوضها عن أمها خصوصًا إنها في سن خطر، من جهة لأنها أقرب ليها مننا، ومن جهة تانية خالتها غنية وميسورة الحال، اللهم بارك، وحتعيشها في عز وتصرف على تعليمها، واحتمال تجوزها ابنها الوحيد كمان.

حاول (حسن) إقناع نفسه بكلماتها خصوصًا أنه لا يمتلك حلًّا آخر، أما في داخله، فقد كان قلقًا، لا يعلم سببًا منطقيًّا لذلك لكنه آثر الحل السهل، وهو تجاهل الأمر برمته.

*****

تلقت (حياة) واجب العزاء عبر مكالمة من ابن عم والدها، وقد كانت تشبه رسالة منهم بالابتعاد وإقرار صريح بعدم الرغبة في تحمل مسؤوليتها، والآن هي مضطرة للعيش مع خالتها لأنها الملجأ الوحيد لها في هذه الحياة، حملت (حياة) حقيبتها، وذهبت مع خالتها منيرة إلى بيتها، كانت (منيرة) تخشى على (حياة) من ابنها (سيف) خصوصًا بعدما علمت أنه وراء ما حدث لزوجها لكن ليس لديها خيار سوى أخذها للعيش معها وإلا كان مصيرها الطرقات بعدما تخلى عنها أهل والدها، وأيضًا أرادت (منيرة) هذا لحاجةٍ في نفسها، خبأتها حتى عن زوجها (مسعد) وليكن ما تريد.. خصصت حجرة لـ (حياة) في منزلها الكبير، تبعد عن حجرة ابنها، أما (سيف) فغمرته سعادة مبهمة حين علم بقدوم (حياة) كأن والدته أهدته لعبة جديدة، كان يتوق إليها في ليلة عيد!

أما (حياة).. فقلبها يخفق في ارتيابٍ منذ أنا وطأت قدمها منزل خالتها، وخصوصًا بعدما شاهدت نظرات زوج خالتها - الجالس على كرسيه المتحرك - إليها في حزنٍ وإلى خالتها في لوم، كأنه كان على علمٍ بأنها أتت بها إلى الجحيم، كان (مُسعد) زوج (منيرة) في منتصف عقده الخامس، يبدو على هيئته الهيبة والصرامة، والتي نال منها المرض، فاختفت خلف تجاعيد وجهه، ولم يتبقَ منها سوى مجرد أثر..

أما منزل خالتها، فيقع على مساحةٍ كبيرة في حدائق الهرم، لكنه ينأى عن المنازل الأخرى، يتكون من طابقين وحديقة صغيرة أمامه، كانت قد ورثته خالتها وورثت أيضًا سبعين فدانًا (مزرعتين للفاكهة) ومبلغًا لا بأس به من المال في أحد البنوك الشهيرة مما جعلها ميسورة الحال بعد موت زوجها الأول (والد سيف) والذي ينتمي إلى عائلة ثرية ومعروفة.. اصطحبتها (منيرة) إلى الغرفة التي أعدتها لها سابقًا في الطابق العلوي لتتفاجأ بأول رسالة ترحيب بالضيفة من ابنها حيث قام بتبديل الغرف، فجعل غرفة (حياة) بجوار غرفته في الطابق الأول، وقام بانتزاع قفل الباب الداخلي والاستيلاء على المفتاح الخاص به كإعلانٍ عن تحطيم خصوصيتها وزرع أول بذور سيطرته عليها، حاولت خالتها تصنع عدم الاكتراث لما رأت، وكأن الغرفة كانت كذلك سابقًا، حتى لا تصدر لها الخوف أو حتى القلق الذي ابتليت به هي ثم تركتها وذهبت لتحضر لها الطعام حتى تنتهي من إفراغ حقيبتها..

*****

في مكانٍ آخر

كم هي مهمة ثقيلة التي ألقتها والدتها على كاهلها حين طلبت منها القيام بهذا العمل الذي تستنكره، وعلى الرغم من أنه عمل شريف إلا أنها ترى أنه يتنافى مع كرامتها ويقلل من قدر والدتها خصوصًا أنها تستطيع مساعدتها، وليست مضطرة لهذا العمل لكن والدتها ترفض

هذا حتى لو اعترضت ابنتها، فلا تقبل أن تكون عبئًا على زوج ابنتها المغترب خصوصًا أنه عامل بسيط، لا بد أن تكسب رزقها من عمل يدها وإعالة ابنتها الصغيرة، ويكفي أنها استطاعت مساعدة ابنتها الكبرى في تحصيل قدرٍ من العلم، وتزويجها أيضًا بفضل الله أولًا ثم هذا العمل ثانيًا.. والآن ابنتها الكبرى تشعر بالحرج، فوالدتها مريضة وأختها الصغيرة أيضًا، وقد طلبت منها الذهاب إلى مقر العمل اليوم بدلًا منها حتى لا تفقده لكنها بين المطرقة والسندان، فمن ناحية أنها لا تتقبل هذا العمل، ومن ناحيةٍ أخرى، زوجها المغترب الذي أوصاها ألا تترك منزلها وتخرج للعمل، فقط لقضاء حوائجها أو لزيارة والدتها، وبالرغم من عمله البسيط إلا أنه يرسل إليها وإلى أولاده ما يحتاجون إليه من مالٍ يكفي دراستهم ومعيشتهم حتى يغنيهم عن كل سؤالٍ لكنها الآن مضطرة لمساعدة والدتها، فوافقت على مضض كي ترضيها.. تركت أولادها في المنزل وذهبت، تدعو الله تعالى أن يمر الأمر بسلام، وقفت أمام المبنى المرتفع البعيد عن المباني الأخرى مما زرع الخوف داخلها نحوه، هذا المبنى الذي تعمل فيه والدتها عاملة نظافة، شعرت بالتردد، تحمل في يدها أدوات التنظيف بينما كانت تحمل في قلبها الخوف والرعب لكن استجمعت شجاعتها والتقطت نفسًا عميقًا لتبدأ العمل فورًا حتى تنتهي منه سريعًا..

****

في الطابق الرابع من تلك البناية

كان جالسًا في عيادته لكن عقله يقبع في مكانٍ آخر، إنه اليوم.. موعد وصول لعبته الجديدة الثمينة، ليست كأي لعبةٍ سبقتها، يتذكر طفولته معها، كيف كانت هادئة هدوء ملامحها، خاضعة مستكينة، وكم كان يستعرض عليها عضلاته وشخصيته! لم يستطع نسيان ذلك اليوم الذي جاءت فيه لزيارة خالتها مع والدتها، فقام باصطحابها بحجة اللعب سويًّا، وحينها مزق ثيابها ليلقي الطين على رأسها وجسدها، لقد كان يستمتع ببكائها وصرخاتها حين نادت أمها كي تنقذها من براثنه مع محاولاتها للهروب، والحقيقة أنه يستمتع الآن لتذكره هذا، وأيضًا يشعر بالحماسة كطفلٍ وعدته أمه بإحضار حلواه الخاصة اللذيذة والمميزة، والآن تنتابه حيرة ذاك الطفل، أيلتهم حلواه دون تغيير أم يضفي عليها نكهاته الخاصة، فتصبح لذتها أقوى؟!

ظل يفكر جالسًا على مقعد مكتبه في عيادته المخيفة، وذلك لوجودها في بنايةٍ خالية إلا من اثنين من المحال التجارية في الأسفل، كما أنها تقع في تلك المنطقة البعيدة نسبيًّا حتى أن مرضاه ليسوا من سكان المنطقة، وغالبًا ما يأتونها بواسطة المشفى الحكومي الذي يعمل فيه صباحًا أو من خلال سمعته الجيدة كطبيبٍ رغم بُعد مكانها.. قطعت حبل أفكاره فتاة عشرينية بسيطة، قمحية البشرة، ترتدي ثيابًا بالية مبتلة ومتسخة، وغطاء رأس، تحمل في يدها بعض أدوات النظافة..

طرقت باب غرفة مكتبه المفتوحة قائلة في نبرةٍ خجلة:

-مساء الخير يا دكتور، معلش باستأذن حضرتك أنضف العيادة بدل أمي النهاردة.

أومأ مستفهمًا:

-انتِ بنت (نعمات)؟

أجابته مبتسمة:

- أيوة يا دكتور، أنا بنتها (منال) الكبيرة.

ثم استطردت لتزيل الحرج الذي تشعر به تجاه هذا العمل، والذي تعتبره إهانة من وجهة نظرها المحدودة:

-أنا متجوزة وجوزي مسافر، مش باشتغل يعني، بس أمي تعبانة هي وأختي الصغيرة، عشان كده جيت مكانها.

شعر بنار كبريائها المستعرة، فقرر إخمادها إلى الأبد قائلًا:

-ممم... خلصتِ مسح السلم؟

أجابت (منال) غاضبة:

-أيوه يا دكتور خلصته.. ممكن حضرتك بس تخرج على ما أخلص المكتب، وبعدين أكمل باقي العيادة؟

قام من خلف مكتبه في صمت، فقط ابتسم في كِبْرٍ حين مر بجوارها ليغادر.

مر بعض الوقت، فتسلل في هدوءٍ إلى المكتب ليراها منحنية الجسد،

توليه ظهرها، ما زالت تنظف الأرض وبجوارها دلو ماءٍ متسخ، سمعها تتمتم في حنقٍ قائلة:

-اللّه يسامحك ياما، خليتي اللي يسوى واللي ميسواش يتكبر علينا..

قال دكتور قال!

ضيق عينيه غاضبًا وخرج دون أن تشعر بوجوده ثم عاد بعد دقائق بحذاءٍ مُلطخ بالطين، وجدها ما زالت على وضعها، فدخل على مهلٍ حتى وصل إلى مكتبه تاركًا تلك الآثار التي وشمت أرضية المكان من كل جانب، وقفت (منال) في صدمةٍ من فعلته تلك، تنظر إلى المكان الذي اتسخت كل أركانه، وإلى هذا الوغد الذي أضاع تعبها في التنظيف لساعاتٍ أدراج الرياح، لم تنطق لفرط دهشتها بينما ابتسم في مكرٍ ليأمرها في نبرةٍ متعالية:

-بسرعة نضفي القرف ده كله تاني.

-يا حيوان! انت فاكر نفسك اشتريت خلق اللّه؟! جاتك القرف فيك وفي عيادتك.

قالتها (منال) في حدةٍ ثم همت لتخرج من غرفة المكتب، لكنه جذبها من الخلف وأغلق الباب بالمفتاح في عجلة ليصفعها ويسبها، فسقطت أرضًا إثر صفعته جاحظة العينين، لا تستطيع استيعاب الأمر، خصوصًا بعدما نزع غطاء رأسها وقيد كلتا يديها وقدميها معًا، صرخت لكن صوت الموسيقى كان عاليًا، فلم يصل صوتها إلى

أحد، نزع حزام بنطاله وانهال عليها ضربًا ثم وضع رأسها داخل دلو المياه المتسخة آمرًا إياها أن تشرب منه عنوة قائلًا:

- اشربي.. اشربي كمان عشان تبقي تغلطي في سيدك وتقولي حيوان!

ثم شرع في جرها أرضًا ممزقًا ثيابها ليلقيها فوق الأريكة مقيدة هامسًا في أذنها كأفعى تصدر فحيحًا:

-تعالي بقا أوريكِ الحيوانات بيعملوا إيه مع اللي زيك!

تركها حطامًا بعدما انتهى منها، وألقى في وجهها بعض النقود ثم أجبرها أن توقع على إيصال أمانة يحتوي على مبلغ كبير كي لا تخبر جهاز الشرطة باعتدائه عليها.

*****

أما عن (حياة).. فقد مر بعض الوقت على جلوسها في الغرفة، تبكي حصنها الحامي الذي انهار ولم يتبقَ منه إلا ذكرى، تتذكر بيتها.. حضن أمها وعطف أبيها، خلافاتها الساذجة مع أخيها الصغير، لقد تحطمت في لحظة، فقط لحظة غاشمة، فقدت فيها كل شيءٍ؛ احتواء والدها، ودفء والدتها، وأنس أخيها..

الفقد.. إنه شعور لا يوصف حين يتمنى الإنسان أن يصبح صدره فارغًا بلا قلب لعل هذا يسكن بعض أوجاعه! يتمنى أن يتجرد من كل شعورٍ حتى يهدأ إحساسه بالاحتراق جراء فقد من أحبهم حد الموت، وكأن ذكراهم أصبحت ككأسٍ من علقم، تجبرك دنياك في كل مرة

على تجرعها كاملًا، كأن روحك تنساب من بين أصابعك دون إرادةٍ حين تذكرهم.. لم تكتفِ الدنيا بحرمانها ممن تحب فقط، بل قادها القدر لتقع في طريق ابن خالتها أيضًا (سيف) الطبيب الغامض، قاسي القلب حتى على أمه ذاتها، وهذا جُل ما تعرفه عنه، فهي لم تره منذ وقتٍ طويل حين كانت طفلة تذهب لزيارة خالتها، فينتهز ابنها الفرصة وينفرد بها لضربها وإيذائها بكل الطرق، فتعود باكية لوالدتها وتقرر ألا تعود لزيارة خالتها مرة أخرى، ولم تسمع اسمه سوى عدة مرات حين كانت تزورهم خالتها وتشتكي سوء معاملته لها وخوفها منه الذي يتفاقم يومًا بعد يوم، وبالرغم من أنها لم تقابله بعد لكنها كانت على قدرٍ من الذكاء لتدرك أنها لن تسلم منه، فجميع المؤشرات حولها غير مطمئنة! ظلت على حالها حتى سمعت صوت مجيئه في الخارج، انكمشت داخل فراشها لا إراديًّا، تدعو الله ألا تصطدم به.. اقترب من مقعد زوج أمه (مُسعد).. تملأ عينيه نظرة شامته ثم همس في أذنه بكلماتٍ يعلمها جيدًا، فهي جرعته التي يتناولها كل يوم في انتظام، والتي تتكون من بعض حبات الشماتة مع كبسولات سبابٍ مركزة، والقليل من (فوار الدم) وإبر الحقد الدفين! لكنه لا يتلقى أي رد فعل من (مسعد) لتخمد بعض النيران المتقدة في صدره منذ طفولته، أما والدته فتقف عاجزة خاضعة بينما كان مستمتعًا بإذلالهما معًا، فهما يستحقان من وجهة نظره، وإن كان محقًّا بعض

الشيء، فمنذ أن توفي والده وتزوجت والدته - بعد مرور أربعين يومًا من وفاته - بـ (مسعد) انقلبت حياته رأسًا على عقب ليتجرع القهر والذل قطرةً قطرة، بدءًا من استباحة زوج أمه لجسده الطفولي ضربًا وحرقًا وتعذيبًا، وصولًا إلى رؤية أمه تنعم في حضن هذا الوغد الذي كان ينحر طفولته كل يومٍ أمام عينيها دون استنكار أو رد فعلٍ منها كأي أمٍّ تخشى على طفلها من نسمة هواءٍ باردة معتقدة أن تلك هي التربية السليمة وأن التدليل سيفسده لكنه لم يستسلم لقدره بل دفن كل حقده عليهما - طوال سنوات حياته - في جرة الذكريات الحارة التي يسقيهما منها كل يومٍ دون رحمة! تلك الجرة التي جعلته يقرر ألا يضعف أبدًا بل سيكون مسيطرًا على الجميع، يحرك كل شيءٍ بطرف إصبعه، سيأمر وسيخضعون، والهلاك على من يأبى!

استدار إلى والدته متسائلًا:

-فين (حياة)؟

انقبض قلبها حين نظرت تجاه غرفة (حياة) دون أن تنبس ببنت شفة، فعلم أنها قد وصلت ليظهر على فمه شبح ابتسامة قائلًا:

-حطي الغدا ليا أنا و(حياة).

ثم استطرد آمرًا:

-لوحدنا!

لم تجرؤ على العودة لبيت زوجها حتى لا يراها أطفالها على حالتها

تلك فيفتضح أمرها، شعرت بالتخبط، تتحاشى نظرات الناس لها حتى وصلت إلى بيت أمها، فتحت الباب، فوجدتها ممددة على الفراش بجوار أختها الصغرى، تسبح في نومٍ عميق، حمدت الله كثيرًا على ذلك، لا ترغب أن ترى هيئتها تلك، دلفت إلى دورة المياه لتسقط أرضًا باكية بكاءً حارًّا، صفعت وجهها حين استرجعت ما فعله هذا الحقير، لقد أهانها ودنس عرضها، ليس هذا فحسب بل أجبرها على التوقيع على هذا الإيصال الذي يحوى مبلغًا، لو باعت كل ما لديها وعملت ما تبقى من عمرها، لن تحصل على نصفه! كما أنها ليس لديها القدرة على الانتقام! سرب من الأفكار يمزق عقلها في تلك اللحظة، ماذا لو علم زوجها بالأمر؟ سيطلقها أو يقتله على أقل تقدير، وكيف سيكون مستقبل أولادها في كلتا الحالتين؟!

استقامت لتقف تحت صنبور المياه، لو استطاعت لجعلت المياه تخترق جسدها الذي تشعر أنه يحمل قذارة العالم أجمع إثر انتهاك ذلك الذئب لها ثم فكرت كيف ستخرج من تلك الكارثة بأقل الخسائر!

*****

انتهى الغداء! والذي كان أطول وأصعب غداءٍ تناولته في حياتها، خرجت من غرفتها فور ندائه، نظر إليها لثوانٍ يسترجع ملامحها، فهو لم يرها منذ وقتٍ بعيد، فتاة بيضاء بعينين سوداوين واسعتين، وملامح هادئة كما كانت من قبل لكن الجديد أنها لم تعد طفلة، فلقد

اكتسبت جسدًا أنثويًّا مثيرًا! أما هي، فكأي فتاةٍ مراهقة، على الرغم من توجسها منه إلا أنها انجذبت إلى وسامته التي لم تنقص من ملامحه الرجولية شيئًا.

-فين خالتي؟

تساءلت هامسة مما جعله ينتشي لاستكانتها، أخرج تنهيدة حارة عاقدًا حاجبيه ثم باغتها وقام بنزع غطاء رأسها في هدوءٍ ليطرحها أرضًا وينسدل شعرها الأسود الحريري مكونًا لوحة فنية أمامه ثم قال:

-متلبسيش البتاع ده قدامي تاني.

ثم استطرد في غضبٍ قائلًا:

-لكن قدام جوز خالتك، لازم تلبسيه، انتِ فاهمة؟

اندهشت لطريقته الحادة معها ولنظرة الشغف التي تحولت في لحظةٍ إلى ظلامٍ دامس بل ولم يترك لها المجال لتتحدث أو تعترض على ما تفوه به، فبالرغم من الامتعاض والاستنكار الذي بدا على ملامحها فور حديثه إلا أن نظرته إليها، جعلتها تستشعر مدى ضآلتها أمامه، فقررت الاستعانة بخالتها في ذلك رغم يأسها منها لكنها أرادت أن تطمئن قلبها قليلًا بأنها ستقف بجوارها، أرادت الإمساك بحبل أمل يجعلها أقوى ولو كان واهيًا.

عم الصمت بعدها أثناء تناولهما الغداء، أما هو فلم يتناول طعامه

بل تناول تفاصيلها ليضع خطة السيطرة عليها، والتي قد نوى تطبيقها من أول يومٍ لها في بيته، يحاول تشرب ملامحها، حركاتها وسكناتها، طريقة تناولها للطعام، تجنبها النظر إليه، والذي فسره عقله المريض بأنه خوف منه، والواقع أنه كان محاولة منها لتتلاشى نظراته الحارقة، كان هربًا لا خشية، فور انتهائها، هرولت سريعًا إلى غرفتها، وقد أصبحت تخشى مما سيحدث معها في هذا البيت أكثر من ذي قبل! لكن هروبها لم يدم طويلًا، لقد دلف خلفها إلى الغرفة ليوصدها بمفتاحٍ، قام بإخراجه من جيب بنطاله، خفق قلبها وحاك عقلها أسوأ السيناريوهات لتتفاجأ بما هو أسوأ!

*****

في الوقت الحالي

مرّ خمسة عشر يومًا على وجودها داخل تلك الغرفة الضيقة، وما زال الطبيب المتابع لحالتها (دكتور عصام) يستمر في محاولاته معها لجعلها تتحدث، فما زالت كل المؤشرات تدل على إصابتها بمرضٍ نفسيٍّ بالإضافة إلى كارثة أظهرتها تحاليل الدم مما جعلها ترتكب جريمتها بالفعل..

-مدام (حياة).. أنا هنا عشان أساعدك، أرجوكِ ساعديني وساعدي نفسك، قوليلي ليه قتلتي جوزك؟

قالها الطبيب (عصام) في نبرةٍ ملحة لكنها نظرت إليه لبرهة ثم

أطرقت صامتة، أراد أن يستفزها بكلماتٍ، يعلم مدى خطئها لكن ليس أمامه سبيل غيرها لجعلها تتحدث، فقال:

-واضح إن جوزك كان راجل طيب ومحترم وعشان كده قتلتيه، ما هو الطيب بيتقتل في الزمن ده!

التفت إليه في حدة وتسارعت أنفاسها حتى أصدرت صوت زمجرة، لاحت ابتسامة فوق شفتيه، فقد نال غرضه ثم أكمل ما بدأه قائلًا:

-الحاجات اللي كانت في الصندوق اللي البوليس لقاه في أوضة النوم.

جحظت عيناها وانتابها الهلع الذي بدأ بخفقان وانتهى بنوبةٍ من الصراخ والبكاء قبل أن ينهي (عصام) باقي جملته قائلًا:

-كان بيستعمل الحاجات دي معاكِ؟

حاول تهدئتها بإحكام قبضته عليها حين صرخت قائلة:

-اااه.. اااه.

لاحظ مدى حساسية جسدها لأي لمسة، وحتى عندما حاولت الممرضة جذبها، تأوهت في ألمٍ غير منطقيٍّ، جال في خاطره أنها قد تكون مصابة بمرضٍ يعرفه تمامًا لكنه نفض تلك الفكرة وأرجأ الأمر إلى سببٍ منطقيٍّ، وهو اضطرابها النفسي ثم قال:

-اهدي يا مدام (حياة) أرجوكِ، اللي كان مخوفك خلاص مات.

سكنت رويدًا رويدًا وكلمته تتردد في أذنيها لترددها هي قائلة:

-مات!

ثم اقتربت من أذن (عصام) هامسة، تتلفت حولها في هذيانٍ كأنها ستخبره سرًّا عظيمًا قائلة:

-(سيف) مش بيموت!

*****

قبل عام

-أرجوكِ يا خالتي، سبيني أروح الجامعة، لازم أجيب كتب وورق مهم للامتحان، والنهارده آخر فرصة ليا.

قالتها (حياة) راجية، تبكي في حرارة بين يدي خالتها التي كانت تبكي معها قائلة:

-يا بنتي أنا خايفة عليكِ، مش فاكرة آخر مرة عمل فيكِ إيه لما شافك بس خارجة من غير الطرحة قدام (مُسعد)؟! ما بالك لو خرجتي وهو مانعك من الخروج؟! وانتِ عارفة ده غير إنه واخد موبايلك كمان من أول يوم جيتي فيه، حاطمن عليكِ ازاي؟!

أجابتها (حياة) في انكسارٍ قائلة:

-عارفه يا خالتي، وإلا كان زماني قدرت أوصل لأهل أبويا يجوا ينقذوني من العذاب ده.. من أول يوم دخل علق لي قانونه على يافطة في الأوضة كأني في سجن، ولو غلطت أتضرب واتهان، عمري ما حنسى إنه حولي انتساب رغم إني جايبة مجموع كبير وحرمني أروح كليتي، بس معلش يا خالتي أنا مضطرة، علقة تفوت ولا حد يموت، خلاص أنا

اتعودت على ضربه ليا، حيعمل إيه أكتر من كده يعني؟!

نظرت (منيرة) إلى زوجها الجالس على كرسيه منكس الرأس، يلتزم الصمت قائلة:

-حيعمل يا بنتي.. حيعمل أكتر.. اسأليني أنا، انتِ صحيح قاعدة معانا بقالك فترة دلوقت، بس لسه متعرفيهوش كويس!

حاولت (حياة) طمأنتها - بالرغم من القلق الذي يسيطر عليها هي الأخرى - قائلة:

-متتقلقيش يا خالتي، أنا حرجع قبل ميعاد رجوعه ومش حيعرف حاجة وحتعدي على خير، أبوس إيدك وافقي بقا، دي فرصتي الوحيدة، لازم أكمل واخد شهادتي في إيدي وأخرج من البيت ده بقا وارتاح منه وأعتمد على نفسي.

اشتد بكاء (منيرة) إثر سماع جملة (حياة) الأخيرة، أرجأت (حياة) هذا إلى إحساسها بالذنب لأنها فشلت في حمايتها أو حتى الدفاع عنها، أما ولدها المريض، فلا يمكن أن يكون شخصًا سويًّا على أي حال، وقد شعرت بما انتاب خالتها، فاحتضنتها وربتت على كتفها قائلة:

-معلش يا خالتي، ما تزعليش، عارفة.. أنا مش حمشي لوحدي، أنا هاخدك معايا انتِ وعمو (مسعد) ونسيب له الدنيا كلها، هاشتغل وهاعيش واعتمد على نفسي.. ونرتاح كلنا بقا، أنا بس مستنية أخلص

دراسة وأقف على رجلي، وساعتها مش هاحتاج لحد ولا هاتذل لحد تاني.

أومأت خالتها موافقة على سبيل الأمل في تغيير الحال، وتركتها تذهب مؤكدة سرعة العودة للبيت داعية الله أن يمر اليوم في سلام!

لم تكن تعلم (حياة) أن (سيف) قد وضع في المنزل كاميرا مراقبة تحوي هذا المسجل الصوتي قبل يومٍ واحدٍ من حضور (حياة) إلى البيت، وأنه يرى ويسمع كل شيءٍ دار بينهما الآن عبر هاتفه المحمول كما لم تكن تعلم أيضًا أن خالتها على علمٍ بذلك، والتي رفعت بصرها إلى موضع الكاميرا فور خروج (حياة) في استسلامٍ تام!!

*****

مر وقت قصير بعد أن أنهت مهمتها وعادت إلى البيت، تحمل كتبها الدراسية وأغراضها التي كانت عالقة بالجامعة منذ أن منعها (سيف) من الخروج، دلفت إلى المنزل في توجسٍ تحدق يمينًا ويسارًا لتجده بالفعل أمامها، ارتعد جسدها وسقط كل شيءٍ من يديها أرضًا، تجمدت في دهشةٍ حين اقترب منها ليلتقط أغراضها من الأرض واحدًا تلو الآخر، وعلى وجهه تأثر مصطنع قائلًا:

-مش تخلي بالك يا (حياة).. كده الورق يتبهدل؟!

جحظت عينا خالتها فاغرةً فاها خصوصًا حين لمس وجنة (حياة) في رقةٍ – فلمسها حق شرعه لنفسه منذ أول يومٍ لها في بيت خالتها –

قائلًا:

-مال وشك أصفر كده ليه؟! صحتك مش عجباني خالص، أنا جبت لك فيتامينات كويسه، خدي كبسولة كل يوم بعد الغدا، واوعديني كمان تاكلي كويس.. اتفقنا؟!

ثم أعطاها علبة تحوي الكبسولات وعليها وصفة تحوي اسم فيتامينات لشركة أدوية معروفة لتتناولها ثم تركها مبتسمًا ليدخل غرفته، انتهزت خالتها الفرصة واقتربت منها هامسة:

-متاخديش الحبوب دي يا (حياة).. اوعي.

أجابتها (حياة) في قلقٍ قائلة:

-متقلقيش يا خالتي، مش هاتوصل لدرجة إنه يموتني مثلًا، وبعدين ما هو مكتوب على العلبة "multivitamin" أهوه، وده دكتور، يعني معقول هيديني حاجة غلط ويودي نفسه في داهية؟!

حاولت (منيرة) إثنائها عن تناول هذا العقار قائلة:

-ما هو عشان دكتور، ودكتور شاطر كمان، باقولك متخديهاش.

وهنا قاطعها صوته الرجولي الغاضب قائلًا:

-متاخدهاش ليه يا ماما؟!

ثم اقترب منها ليواجهها قائلًا:

-لو انتِ مش خايفة عليها، أنا خايف، وعمومًا أنا هاتغدا مع (حياة) كل يوم عشان أتأكد إنها بتاخدها بعد الغدا بانتظام.

ثم أتبع جملته بنظرة وعيد لوالدته، فتركته ودخلت غرفتها لتفكر؛ هل حقًّا تغير قلب ولدها؟ هل ما خططت له بدأت ثماره في الظهور بتلك السرعة أم أن ما يحدث مجرد خدعة ستكون عاقبتها وخيمة؟ بينما احتضن هو (حياة) ومسد خصلات شعرها المنسدلة فوق ظهرها في رقةٍ، وقد لاحت على شفتيه ابتسامة ذات مغزى خبيث كقلبه! أما هي، فتكاد تصل دهشتها من تحوله حد الجنون، فبدلًا من أن يعاقبها، يكترث لصحتها، خصوصًا حين احتضنها، شعرت بشيءٍ من الأمان لأول مرة، والذي افتقدته مع وفاة عائلتها، في تلك اللحظة أرادت طرد كل شعورٍ سلبيٍّ داخلها، وزرع بذرة أمل مقابل الشك لعل حدسها صحيح، وأنه قد تغير لأجلها حقًّا!

دخلت (منال) دورة المياه وأغلقت الباب، أخذت تقلب اختبار الحمل بين إصبعيها بيدٍ مرتعشة، تدعو الله ألا يكون ما تخشاه صحيحًا، وضعته في عينة التحليل وتركته لدقائق، جذبته بعدها لكنها لم تجرؤ على النظر إليه، شعرت بالرعب، فتحت عينيها في بطءٍ ونظرت إليه مخاطبةً نفسها أنه إن وقع البلاء سيكون أفضل من انتظاره، لكنه قد وقع بالفعل حين رأت خطين واضحين قد تشكلا عليه! كتمت صرخاتها باكية لتضرب بطنها في عنفٍ، وتلعن ذاك الذئب الذي وصمها بعار، لن يُمحى في سهولة! ظلت تفكر فيما سيحدث لها، ستفتضح بلا شك، فأنى لها أن تحمل وزوجها في سفره منذ عامين؟! كيف ستخبره؟ بل

كيف ستخبر والدتها؟ هل ستلومها لأنها السبب الرئيسي في كل ما حدث؟ لكنها لن تتحمل ذلك، ستسقط جثة هامدة حينها جراء تلك الصدمة، هداها عقلها إلى سرعة التخلص من تلك النطفة التي أتت سفاحًا، وإلا ستسقط عائلتها كاملة في بئرٍ من العار الذي سيلاحقهم طوال حياتهم..

*****

كان في عيادته الخاصة كعادته في هذا الوقت حين كتب الدواء لمريضٍ أمامه قائلًا:

- الدوا ده يا حاج، تنتظم عليه لمدة شهر وتيجي الإعادة نشوف.

ليجيبه المريض شاكرًا:

-اللّه يخليك يا دكتور، ربنا يجعل على إيدك الشفا يا رب.

أومأ (سيف) في كبرٍ كعادته حين تركه المريض ولسان حاله يسبه ويلعنه على هذا الغرور.. في تلك اللحظة دق جرس هاتفه ليجيب قائلًا:

-أيوه.. فيه إيه؟! تمام أنا جاي.

أغلق المكالمة حين لاحت ابتسامة سامة فوق شفتيه..

*****

في مكانٍ آخر

-اااه يا خالتي، هاموت!

صرخت (حياة) لتتشبث بالأشياء حولها، فأمسكت بها (منيرة) في محاولةٍ لتهدئتها قائلة:

-معلش يا بنتي اتحملي، أنا مكلماه من ساعة دلوقت، معرفش إيه اللي أخره، بس معلش اصبري شوية كمان، زمانه جاي في الطريق، أنا مش عارفة بس إيه اللي جرالك، بقالك فترة مش مظبوطة، دوخة وترجيع وصداع، مالك بس؟!

لتجيبها (حياة) وقد خارت قواها قائلة:

-صداع رهيب يا خالتي، وجسمي واجعني، مش قادرة هاموت.

*****

بعد مرور ساعتين

-قلبي مش مطمن يا (مُسعد).. من ساعة ما دخل بيها الأوضة بحجة يشوف مالها ويديها العلاج، وأنا مش سمعالهم صوت، قلبي بيقولي إن هو السبب في اللي بيجرالها ده.

حدثت (منيرة) زوجها في ألمٍ حين جلست في حجرتها حسب تعليمات ولدها المتغطرس ليحدق إليها زوجها (مسعد) في ضعفٍ قائلًا:

-واحنا في إيدنا إيه قوليلي؟ اتنين عواجيز لا صحة ولا سند، بس تعرفي يا (منيرة) أنا مش زعلان ع اللي إحنا فيه، خلينا نكفر ذنوبنا ونروح نضاف لربنا، أنا زعلان على البنت اليتيمة اللي اتقطعت من شجرة دي، يا ترى ابنك ناوي يعمل ايه فيها؟

-واحنا كنا عملنا إيه يعني يا (مسعد) عشان يهينا في آخر عمرنا الإهانة دي؟! لا أنا أول ولا آخر واحدة تتجوز بعد جوزها ما مات، ليه يكرهني الكره ده كله كأني عدوته مش أمه؟! ليه يعمل فيك كده ويقعدك عاجز على كرسي؟! يعني هو ده اللي حلال؟!!

ابتسم (مسعد) في استنكارٍ قائلًا:

-انتِ مصدقة نفسك يا أم (سيف)؟!

اقشعر جسدها حين سمعت لقبها الذي اندثر منذ أن تزوجته ليردف قائلًا:

-إيه نسيتِ إنك أم (سيف) اللي أنا ياما ضربته وحرقته وعذبته، مفوتلوش غلطة زي أي طفل بيغلط، عمري ما عوضته عن أبوه اللي مات وهو صغير وملحقش يشبع منه، ولا حاولت أخده في حضني، وانتِ عمرك ما منعتيني عن أذيته، عمرك ما دافعتِ عنه، كل مرة رد فعلك كان بيقويني ويجرأني أفتري عليه أكتر، ودلوقت مستغربة بيعاملك كده ليه؟! ولا إنه استغل اني بخليه يخدمني ويعملي كل طلباتي، استغل إهانتي واستضعافي ليه كأنه عبد ضعيف وأنا سيده، وفضل يحطلي في الشاي حبوب عجزتني، إحنا ربينا وحش، عملناه على إدينا يا (منيرة) والوحش كبر وإحنا كان لازم نكون أول فريسة، ده العدل.

نكست (منيرة) رأسها باكية ندمًا وقهرًا وعجزًا، تعلم جيدًا أن زوجها على صواب، هي من أعطته الفرصة ليلحق الأذى بولدها الوحيد لينشأ

في ظل رجل لكنه تحول وحشًا، لم ولن تستطيع مجابهته! تتذكر حين طلبت منه الذهاب إلى طبيبٍ نفسيٍّ لأن حالته غير طبيعية، والتي تمثلت في عصبيته وفقدان السيطرة على غضبه، ورغبته المتكررة في إلحاق الأذى بمن حوله، خصوصًا عندما واجهته بما فعله بزوجها حين سمعت اعترافه له لكنه ضربها ضربًا شديدًا وقام بتكسير كل ما في البيت في حالةٍ من الهياج العصبي، والتي جعلتها تهابه أكثر من ذي قبل، فلا تجرؤ على عصيانه أو الصمود أمامه، وهذا أسعده كثيرًا، ربما هو على درايةٍ كاملة بأنه غير طبيعي، وأنه بالفعل يحتاج إلى علاجٍ نفسيٍّ لكنه سعيد بما هو عليه وفرض سيطرته على الجميع، مستمتعًا بخشية الجميع منه، وإن كان مرضه هو القوة، فليحيا هذا المرض، فليس لديه أي استعداد لاختبار الضعف ثانيةً، ذلك الشعور البغيض الذي جعل زوج أمه يذيقه أشد العذاب في استكانةٍ وخضوع، لن يخضع مرة أخرى بل يجب على الجميع الخضوع له طوعًا أو قسرًا..

*****

في حجرة (حياة)

كان يخاطبها في رقةٍ كعادته في الفترة الأخيرة، استلقت على الفراش بعدما أعطاها كبسولة دواءٍ تناولتها ثم قال:

-ها.. بقيتي أحسن دلوقت؟

أجابته في نشوةٍ قائلة:

-آه الحمد للّه بقيت كويسة.

اقترب منها لتخترق أصابعه خصلاتها الليلية ثم لمس وجنتيها ليهمس محدقًا إلى ملامحها الهادئة:

-بس بكرة مش هتبقي كويسة.. هتتعبي والصداع والألم هيرجعوا تاني وهيكونوا أقوى، عشان جسمك هيكون أضعف.

تغيرت ملامح وجهها لتعتدل في جلستها، وقد تمكن منها الخوف، فما كانت تشعر به قبل ساعة من مجيئه، يشبه خروج الروح من الجسد، فتساءلت في قلقٍ قائلة:

-ليه مش هبقى كويسة؟.. أنا عندي إيه بالظبط؟

أغمض عينيه ليستنشق عطرها ويملأ به صدره ثم يخرجه مع تنهيدةٍ حارة، ونظرةٍ ذات ألف معنى حين أردف هامسًا:

-مش هتبقي كويسة لأنك خالفتِ أول قواعدي، بصي هناك كده.

وأشار إلى لوحة التعليمات التي كان قد وضعها أمام ناظريها منذ أول يومٍ لها، وكان أول ما كُتِب «انتِ مِلك خاص بيا.»

ليردف في نبرةٍ مسيطرة قائلًا:

-يعني انتِ ملكي كُلك.. قلبك.. روحك.. جسمك.. حتى النفس اللي بتتنفسيه، بس انتِ شكلك مفهمتيش المعنى صح، عاوزة تخلصي جامعة وتشتغلي وتمشي من البيت، ومش بس كده، تاخدي أمي وجوزها معاكِ.. ده إيه الجمال ده؟!.. لأ عجبتيني!

أنهي جملته الأخيرة حين صفق في سخريةٍ أرعبتها، وجعلت قلبها يخفق ألمًا.. لقد شعرت حينها بمعنى الخيانة لأول مرة، لا بد أن خالتها هي من أخبرته بالحديث الذي دار بينهما، وإلا من أين له أن يعرف؟! لقد خدعها كل تلك الفترة.. عاملها في رقةٍ ولم يعاقبها حين خرجت دون علمه ليوهمها أنه قد تغير وأصبح شخصًا لطيفًا بالفعل، لكن لأجل ماذا؟ وكأنه يعلم ما يجول في خاطرها، وضعت كلتا يديها على فمها جاحظة العينين، تحدق إليه وإلى علبة الفيتامينات التي يلوح لها بها.. الآن قد فهمت كل شيءٍ لكن بعد فوات الأوان.. ضحك في سخريةٍ قائلًا:

- انتِ فعلًا كنتِ فاكراها فيتامينات؟! حقيقي انتِ ساذجة أوي.

ثم أرخى يديه في استسلامٍ قائلًا:

-زي كل الستات!

كادت تصرخ لكنه باغتها بوضع يده على فمها قائلًا:

- ششش.. لو صوتك طلع أو نطقتِ بحرف لأي حد، هاوريكِ عذاب يخليكِ تموتي في اليوم ألف مرة، وافتكري طول ما بتسمعي كلامي وبتنفذي أوامري هتفضلي كويسة وبخير، غير كده يبقى انتِ اللي جبتيه لنفسك.

رفع يده وتركها تنتحب ليملي عليها أوامره الجديدة قائلًا:

-من بكرة مفيش جامعة حتى لو انتساب خلاص، ولا خروج من البيت،

ولا حتى من أوضتك، وبعد يومين هاكتب كتابي عليكِ.. وآه هتسيبي البيت ده زي ما كنتِ عاوزة بس مش لوحدك.. هنسيبه مع بعض يا... حياتي!

تركها وخرج مع آخر كلماته من الغرفة، ما زال يستمع إلى صوت نحيبها، هو حقًّا لم يرد أن يؤذي صحتها، فقط أراد أن تخضع له، بل وملك يمينه، يحركها كيفما شاء ويفرض عليها كامل سُلطاته ورغباته لكن نظرة القوة والإصرار في عينيها، وعصيانها لبعض أوامره دون أن تعبأ بمعاقبته لها، أجبرته أن يفعل كي تبقى تحت سيطرته..

*****

الحل هو الهروب، هذا آخر ما توصل إليه عقلها، كانت تظن أن الوحش سيتغير قلبه، ويحب الجميلة ليتحرر الجميع، فتعود الأشياء لطبيعتها وينال قلبها ما يريد من دفءٍ وسكينة لكن هيهات.. إنها ليست تلك البطلة سعيدة الحظ، صاحبة القصة، وهو لم يتحول إلى وحشٍ بضربة عصا من ساحرةٍ غاضبة بل هناك في قلبه المظلم ما لا ينفع معه أي تعويذة، فقد سقطت جميع أوراق وردة نجاته الحمراء، وانتهى الأمر!

استجمعت ما تبقى لها من قوة، وقامت بجمع أشيائها عل ما تجده بين طيات الطرق، يكون أكثر رحمة من تلك الكارثة، حتمًا ستجد من يساعدها ويقدم لها العلاج، ستعثر على من يحتوي عمرها الذي

سيضيع حتمًا يومًا ما! أما هو، فمنذ أن تركها، يجلس في غرفته، ينفث غضبه - في سكون الليل المظلم كقلبه - مع دخان سجائره، يرى العالم مشوشًا من خلف دخانه الكثيف كغيمةٍ يشكلها خياله لعديد من العوالم المبهمة والذكريات التي يتقد بها ذهنه منذ طفولته، يرى أمه تجر ثيابه أمام زوجها لتخبره أنه قد خرج عن السيطرة ولا بد من معاقبته، فيشمر زوجها عن ساعديه كأنه نال فرصة قد تمناها، فرؤية الصغير تذكره دائمًا بصورة والده المتوفى، والذي كان يكرهه، لقد رحل من الدنيا لكنه ترك وريثه وقطعة منه على وجه الأرض ليكدر صفو حياة الزوج الجديد في كل مرة يرى وجهه فيها، فيستعر غضبه ويقيده بلا رحمة مجردًا إياه من ثيابه ليشعل قداحته في كل جزءٍ من جسده، يحرقه ويحرق روحه وطفولته أيضًا، ما زال يشعر بالألم بل ويرى أمه تقف دون أن تحرك ساكنًا، فيشتعل غضبه أكثر وينفث المزيد من الدخان الثائر ليرى نفسه مرة أخرى وقد وضعه زوج أمه في حوض الماء البارد مع قساوة برد الشتاء، فتغزو خناجر الألم كل جزءٍ منه ليصرخ قهرًا وتتصاعد ضحكات زوج أمه، فيزداد غضبه وتظلم عيناه لتتحول غرفته إلى سحبٍ طبقية سوداء، ويرى نفسه تلك المرة مقيد اليدين والقدمين بأحد أعمدة المنزل الخارجية ليقضي ليلته في الخارج، تنهال عليه زخات المطر، ويضرب البرق رأسه كطلقات الرصاص الحي كعقابٍ له من نوعٍ جديد، وأمه وزوجها اللعين الذي

قيده، ينعمان بالدفء في الداخل لتنتهي سيجارته، فيقوم بدفنها في المطفأة بجواره ثم يعود فيلتقط سيجارة أخرى، يضعها بين شفتيه ويمرر قداحته عليها ذهابًا وإيابًا لينفث المزيد من الدخان ناظرًا إلى النار لينكب على كتبه رغبةً في الانتقام، فيتفوق على زملائه عامًا بعد عام، ويدخل كلية الطب ثم يدرس هذا العقار الذي من شأنه إرخاء عضلات الحيوانات ليقرر تنفيذ انتقامه، فيضع لزوج أمه هذا الدواء في كل ما يتناوله حتى تأتي تلك اللحظة، وقد سقط جلاده أرضًا بلا حراك.. لحظة نصر ونشوة تغزو قلبه كلما رأى عذابه ليستفحل الأمر ويستشعر تلك النشوة عندما يقوم بتشريح الحيوانات الحية تحت التخدير في الجامعة أو لجثةٍ ما زالت رطبة ليكتشف أن متعته أصبحت تكمن في تعذيب من حوله سواء كان جانيًا أم مجني عليه!

أخرجه من بين دخان أفكاره، صوت فتح باب المنزل ليهرول سريعًا خارج الغرفة، فتقع عيناه عليها وقد سقطت حقائبها أرضًا عند رؤيته، ولم تستطع قدماها حملها، فتسقط أرضًا بجوار حقائبها غارقة في البكاء، ويستحضر مشهد سقوط زوج أمه عاجزًا لتتصاعد إلى دمائه نشوة التعذيب، فيجذبها إلى غرفتها ويوصد بابها لترتشف أولي قطرات كأس عذابها في حين غفلة من خالتها وزوجها اللذين يغطان في سباتٍ عميق في الطابق العلوي! قام بتقييد يديها وقدميها إلى الفراش بأساور حديدية، وتكميم فمها ثم تجريدها من ثيابها في

عنفٍ وغضبٍ ليتركها تترقب عذابها القادم، وخرج من الغرفة ليعود بعد ثوانٍ وقد أحضر معه صندوقًا كبيرًا، قام بفتحه لتجحظ عيناها وتتجمد رعبًا عندما رأت ما في داخله ثم أخرج شمعة كبيرة وأشعلها ليمررها فوق جسدها البض على مهلٍ لتتساقط قطراتها الحارة وتحرقها مستمتعًا بأنينها المكتوم ودمعاتها التي تحرق الفراش، وآثار الحروق التي بعثرها على جسدها ليقترب منها في نبرة صوته الهادئة حتى الموت، القاسية حد القتل قائلًا:

-أنا كنت عاوز أتجوزك وأخليكِ بني آدمة، بس انتِ مصرة تعيشي زي الكلاب، تمام من النهاردة انتِ كلبة وأنا سيدك.

ليتجرد من ملابسه مع آخر حروفه، ومن إنسانيته أيضًا، وينقض عليها ليستبيح جسدها المعذب وروحها المنهكة ثم تركها كالشاة التي تم سلخها بعد ذبحها!!

ودون اكتراثٍ فك قيدها ثم ارتدى ملابسه ليلقي عليها تلك الجملة قائلًا:

-كويس إنك لميتي حاجتك عشان هنمشي من هنا الصبح، ولحد الصبح لو عتبتي بره الأوضة هاقطع رجليكِ الاتنين بإيدي!

*****

-(سيف).. هتمشي برضه؟!

حاولت أن تستجدي عطفه، ودمعات كشلالٍ حار تسقط دون إرادةٍ

وهيئة منكسرة يستمتع بها كثيرًا، لا تجرؤ على الاقتراب منه كأي أمٍّ تلتمس الدفء في حضن ولدها، فلم يبق بينها وبينه الآن سوى جبل من جليد...

لم يعر نداءها اهتمامًا، واستكمل جمع أشيائه دون اكتراث حتى كادت تنفجر غضبًا، لقد أفسد خطتها كاملة برغبته في الذهاب تلك..

-عاوز تمشي، امشي لوحدك، بس مش هسمح لك تاخد (حياة).. إحنا مش في غابة، انت فاهم؟

ارتدت إلى الخلف نادمة مع آخر حروفها، وقفت مرتعدة، إنها تخشاه، ترك ما في يده ونظر إليها ساخطًا دون حديث، لحظات مرت في صمتٍ يكاد يقتلها، أما هو ففي غاية النشوة لرؤيتها هكذا ليكسر تلك اللحظات في نبرةٍ هادئة قاتلة ساخرة.. قائلًا:

- امنعيني.

ثم اقترب منها هامسًا في استهزاءٍ لترتعد أكثر:

- أو أقولك الأحلى.. روحي القسم بلغي عني.

ثم عاد ليكمل ما كان يفعله في نشوة إثر ارتجافها أمامه!

وهناك من وقفت تترقب بنظراتٍ مرتعبة، تختلس النظر من فتحة باب غرفتها التي أصبحت نافذتها للعالم، لا يقوى جسدها على الاحتمال بعدما تركها حطامًا أمس، والآن قرر أن يحررها من سجنٍ في بيت خالتها لتنتقل معه إلى ذلك المعتقل الذي لا تعلم عنه شيئًا، ستكون

وحيدة تمامًا، تعيش مرغمة مع من لا رادع له ولا ضمير، وبالرغم مما حدث إلا أنها لم تفقد الأمل بعد فيما سيكون، لن يبقى حالها هكذا، لن تقبل العيش أسيرة تحت قدمي هذا المريض، ربما كان الاستسلام بديلًا مقبولًا لديها لبعض الوقت لكن القادم سيغير الكثير..

أما خالتها، فلقد اجتاحها بركان من المشاعر، تقف عاجزة، هل تؤذي ولدها وتقضي على مستقبله أم تترك (حياة) لمصيرها المظلم الذي وضعتها هي فيه؟! لقد شعرت بالقلق عليه، فهي ما زالت أمه على كل حال، وتعلم أنها من دفعته إلى هذا التحول، أرادت إراحة ضميرها، فدلفت إلى غرفة (حياة) الجالسة أرضًا، وقد دفنت رأسها بين ذراعيها، وبجوارها حقائبها، اقتربت منها في بطءٍ لتربت على كتفها قائلة:

-(حياة) يا بنتي.

رفعت (حياة) رأسها لتحدجها في غضبٍ قائلة:

-أنا مش بنت حد، أنا أمي ماتت.. يا خالتي!

-عندك حق يا بنتي تزعلي مني، بس خليكِ مكاني، أنا مفيش في إيدي حاجة، وبعدين اطمني أنا حاسة إن قلب (سيف) حيحن ويتغير على إيديكِ.

لاحت ابتسامة على شفتيها ناظرةً إليها في يأسٍ ثم قالت:

-يتغير على إيدي؟!.. بقولك إيه يا خالتي، لو انتِ جاية دلوقت

تواسيني وتريحي ضميرك بكلمتين بعد ما رحتِ قلتِ لابنك كلامنا مع بعض، وخلتيه يجي يعمل فيا اللي عمله، فوفري كلامك.

شعرت خالتها بالدهشة قائلة:

-كلام إيه ده اللي أنا قلته، أنا مقلتلوش أي حاجة.

لتجيب (حياة) في غضبٍ مكتوم قائلة:

-حتى لو مقولتيش، وفرضًا إنه ساحر بيعرف الطالع ويقرا المستخبي، كفاية إنك شيفاني بدبِح قدامك كل يوم وساكتة، خايفة على ابنك أو خايفة منه متفرقش كتير، النتيجة واحدة وبرضه رد الفعل حيكون واحد، ولا فاكراني هسلم يا خالتي واسيبه يخلص الباقي من عمري؟

ثم وقفت أمامها لتتحول قائلة في لهجةٍ شرسة:

-ابنك خد مني شرفي وكرامتي وصحتي ومستقبلي ودراستي.. سرق أحلامي وآدميتي في سنة واحدة، ولسه مكمل، عاوزني أعيش معاه في الحرام، يعني حتى آخرتي عاوز يخدها.. ابنك خد كل حاجة.. ولما الإنسان بيتاخد منه كل حاجة، بيبيع كل اللي في طريقه، وانا خلاص مفضلش ليا حاجة أبكي عليها، وطول ما فيا نفس مش هبطل أحاول أتخلص منه، ولا هسمح له يضيع حياتي معاه أكتر من كده!

-وتفتكري إني هاسكت لك لو أذيتي ابني الوحيد يا (حياة)؟!

قالتها (منيرة) وقد تحولت حين رأت في عيني (حياة) الإصرار على الانتقام للبقاء على قيد الحياة لتردف قائلة في نبرةٍ صارمة:

-بصي يا بنت أختي، زي ما كنتِ صريحة معايا دلوقت، أنا كمان هاكون صريحة معاكِ، أنا عارفة إن ابني مش طبيعي، وكوني سيباكِ معاه دلوقت، فده عشان عندي أمل إنك تصلحي حاله وده في إيدك، منكرش إنك صعبانة عليا، بس وهو مين فينا اختار نصيبه؟! ده نصيبك، ارضي بيه، وأنا هافضل وراه لحد ما يتجوزك ويسترك، وحاجة من اتنين، يا ترجعي البيت ده مراته وأم عياله وحاله معدول يا ترجعي جثة يا (حياة) أدفنك بإيدي يوم ما تفكري في أذيته!

صدمت (حياة) مما سمعته كأن دلو ماءٍ بارد قد سقط على رأسها على حين غفلة لتكتشف أنها كانت مجرد قربان قدمته خالتها لابنها لتقضي على أشباح الشر التي تملأ روحه، قدمتها له كفأر تجارب دون ذرة ندم لعلها تكون سببًا في تحوله، فإن فعلت نجت ونجا معها، وإن التهمتها تلك الأرواح الشريرة، فلا ضير!

*****

بعدما جمع حقائبه مستعدًّا للرحيل، جلس يفكر فيما هو مُقدِم عليه، كان يعتقد أنه بعد ما فعله معها ستصبح خاضعة له دون شروط، وستسلم حتمًا للأمر الواقع لكن ما وصل إلى سمعه من حديثٍ دار بينها وبين والدته، علم أنها أقوى من أن تصبح جاريته كما يرغب، منذ أول يومٍ رآها، علم أنها صعبة المنال، ربما تبدو هادئة لكن نظرة الإصرار والطموح في عينيها، جعلته يسلك هذا السبيل لتخضع عنوة،

لكن بعد ما سمعه من حديثها، لا بد من فرض المزيد من القيود.. ربما عقد تمليك قانوني يفي بالغرض، فلا تستطيع الهرب خارج حدوده، عقد شرعي يمنحه المزيد من السيطرة ويضعها داخل نطاق، لا يتسنى لها اجتيازه، في ظاهره عقد زواج، وباطنه (قيد حياة)!

تفاجأ جميع من في البيت بحضور موثق عقود الزواج (المأذون) وقد اصطحب اثنين من الشهود، خرج (سيف) للترحيب بهم ودعوتهم للدخول، أجلسهم في حجرة استقبال الضيوف بينما أمر والدته - التي شعرت بالسعادة لزواج ابنها - أن ترحب بهم بينما أخبر زوج أمه أنه سيكون وكيل العروس، وبالطبع لا مجال للرفض!

دخل غرفة (حياة) - التي فقدت الأمل في النجاة -قائلًا في لهجةٍ آمرة:

-المأذون بره في الصالون، عشان يكتب كتابنا يا عروسة، وجوز أمي هيكون وكيلك، وإياكِ تحاولي تعملي مشكلة أو تعترضي على حاجة، ولو سمعت بس صوتك ولا لمحت طرفك بره الأوضة، هاوريكِ ساعتها عذاب ربنا على الأرض شكله إيه، وافتكري إن ميعاد دواكِ قرب، عاوزين نكتب الكتاب ونخلص بسرعة عشان تاخدي الحباية وتبقي كويسة، ولا إيه؟

صمتت شاعرة بالعجز! فقط انكمشت في فراشها منهكة، تبكي بلا توقف، فقد انتابها الألم بالفعل، وبدأت الأوجاع تغزو جسدها شيئًا

فشيئًا، والآن لا بد أن تقدم أي شيءٍ مقابل ما يقدمه لها من حباتٍ مخدرة!

بعد مرور ساعة ونصف، قضي الأمر وأصبحت ملكًا رسميًّا له بقيدٍ شرعي، رافقها إلى بيتٍ جديد أو بالأحرى سجن جديد، ابتاعه وقام بتجهيز كل ركنٍ فيه لاستقبالها، كما أنه قام باستبدال عيادته القديمة بأخرى على مقربة من بيته الجديد، كي لا يبتعد عنها كثيرًا، حتى أنه زاد من تركيز المخدر الذي يعطيه لها كي يتمكن منها الضعف أكثر، فلا تستطيع الدوران خارج حدود فلكه!

*****

منذ عودة زوجها من سفره في إجازته السنوية، تحاول الابتعاد عنه قدر المستطاع، تهرب من عينيه كي لا يقرأ ما تخفيه، ربما المواجهة هي أسمى فنون القتال في الحياة لكنها هشة، فكيف لها أن تخوض حربًا، وقد سُلب سلاحها وهدرت روحها كغنيمة؟!

(محمد).. شاب بسيط في أوائل عقده الثالث، قمحي البشرة، طيب القلب، تزوجها بعد قصة حبٍّ جمعت بينهما لعدة أعوام، وقد مرا معًا بالكثير من الصعاب، فحاول أن يجد مخرجًا ليكسب لقمة عيشه التي أصبح الحصول عليها صعبًا للغاية، لذا قرر السفر والاغتراب عن أهله ووطنه، وفضل أن يتركهم مقابل أن يؤمن لهم حياة كريمة بدلًا من البقاء في ظل الجوع والشقاء، أما زوجته (منال) فبالرغم من

مرور شهور على تلك الحادثة، ولم يحدث ما كانت تخشاه، إلا أنها ما زالت تشعر بانهيارٍ داخليٍّ، يتعذر إصلاحه، وزوجها على يقينٍ من أنه قد حدث خطبٌ ما، فمنذ حضوره، يشعر بشيءٍ غريب، فلم تستقبله تلك المرة في حرارة كما اعتاد منها عندما يحضر لقضاء إجازته، صمتها، تجاهلها للجميع، إفراغ طاقة غضبها في أولادها، وكل من يحاول الاحتكاك بها لأي سبب، سأل والدتها عما أصاب ابنتها في غيابه، لكن لم يجد لديها الإجابة لأنها لا تعلم أيضًا عن الأمر شيئًا، مر شهر من إجازته، يستجدي الصبر ليتحمل وضعها الجديد المبهم، الذي أصبح لا يطاق!!

-أنا ما وحشتكيش ولا إيه؟!

سألها (محمد) زوجها محاولًا الاقتراب منها في رقةٍ لكنها دفعته بعيدًا عنها، وحينها بلغ الغضب مبلغه، فقال في حدةٍ:

-وبعدين يا بنت الناس، هتفضلي ع الوضع ده لغاية امتى؟ فهميني، أنا خلاص معدتش قادر أتحمل أكتر من كده!

كانت وسيلة دفاعها السبق بالهجوم، فأجابته في نبرةٍ عالية، تشبه الصراخ:

-تعبانة.. تعبانة ومخنوقة، هو أنا مش بني آدمة! مش من حقي أتعب زي الناس!

نظر إليها في حيرةٍ ثم اقترب منها قائلًا:

-(منال).. انتِ تايهة لدرجة مش عارفة بتقولي الكلام الأهبل ده لمين، أنا (محمد) جوزك اللي فاهمك أكتر من نفسك، الكلام ده تقوليه لحد غيري يصدقه، دي مش عشرة يوم، قدامك مهلة تلات أيام مفيش غيرهم، يا تقولي مالك، يا هتشوفي مني اللي عمري ما فكرت أوريهولك من يوم ما اتجوزنا.. بس انتِ اللي هتضطريني ليه!

دخلت غرفتها وأغلقت الباب ثم هوت على فراشها لتنتحب في قهر، كيف ستخبر زوجها بالأمر؟! إنه يطلب منها المستحيل في أبشع صوره، غير أنها تفضل الحرق حية على إخباره، تذكرت كل ما حدث معها بدءًا من انتهاك (سيف) لها وحتى علمها بأمر حملها، ومحاولاتها المستميتة في الإجهاض، والتي لم تتوقف عنها حتى شعرت بالدماء تنساب من بين ساقيها لتجر قدميها منهكة إلى المشفى القريب من بيتها، وتصطدم بالسيدة (راجية) التي تعمل كممرضة في قسم الاستقبال في هذا المشفى، والتي تعرف بين زملائها بـ (أم إسلام) وقد كانت جارة لها فيما سبق قبل انتقال (منال) وزوجها إلى حيٍّ آخر.. تذكرت كيف ساعدتها السيدة (راجية) على الدخول سريعًا إلى غرفة العمليات وإحضار الطبيب الذي استطاع إيقاف النزيف سريعًا، كانت تعلم (أم إسلام) بسفر زوجها، وكي تخرج (منال) من هذا المأزق، أخبرتها أن زوجها قد عاد من سفره منذ عام لكنه سافر قبل يومين لقضاء عملٍ ما في مدينةٍ بعيدة، ومن الصعب حضوره الآن،

وأنها تفضل عدم إزعاجه بالأمر كي لا يشعر بالقلق عليها.. وكيف أنها أصرت على الخروج من المشفى والعودة لأولادها فور شعورها بالراحة رغم خطورة حالتها حتى أنها قامت بالتوقيع على إقرار إخلاء مسؤولية قبل المغادرة، وذلك كي لا يشعر أحد بأمرها، وعندما مكثت في الفراش عدة أيام، انتاب والدتها القلق، وقامت بالذهاب للاطمئنان عليها، فأخبرتها أنها تشعر بالإرهاق قليلًا، واعتقدت أن الأمر سيمر دون أن يدري أحد أفراد أسرتها لكنها كانت مخطئة، فمنذ أن عاد زوجها، وكلما حاول الاقتراب منها، تتذكر لا إراديًّا ما فعله (سيف) لترتعد ويرفضه جسدها، تشعر أن طعنات حادة ستصيبها إذا سمحت له بأخذ حقه الشرعي!! والآن لقد وُضعت بين المطرقة والسندان، إما أن تخبر زوجها بالأمر أو تخفيه عنه لتتحمل العواقب، والنتيجة في الحالتين واحدة؛ ألا وهي خسارة زوجها وحياتها معًا!!

*****

مرَّ عام لينهار في داخلها كل شيء، تعيش يومها في ذلٍّ وقهرٍ وإهانة، وقد مارست كل طقوس العبودية بدءًا من تقبيل حذائه حين عودته، إلى معاملتها كحيوانٍ أليف، يلقي لها الطعام أرضًا ثم يأمرها بالتقاطه ككلبٍ مرة أو كقطٍّ مرة أخرى، حاولت رفض قوانينه التي أهدرت إنسانيتها، حاولت الهروب أو طلب المساعدة من الجيران لكنها فشلت كما أنها لم تصمد كثيرًا أمام عقابه لها، ما بين حرقٍ

وجلدٍ أو حرمان من المخدر، واستخدام أدوات التعذيب الخاصة، والتي جمعها في صندوق، ترتعد حين يفتحه ليحدق إلى ما يحتويه! كما يستخدم أدوات الجراحة في مهارةٍ ليعذبها ويعالجها في الوقت نفسه مستمتعًا بعذابها وأنينها أمامه..

كانت في انتظار قدوم جلادها من الخارج لكنها غفت عنوة حين جلست على الفراش لترتدي الزي المدرسي، وقد دقت جرس باب منزلهم ليفتح لها والدها ويحتضنها كأنه لم يرَها منذ وقتٍ طويل، وتأتي والدتها التي كانت تقف في المطبخ، تجهز لعائلتها كل ما تشتهيه أنفسهم على الغداء، فتشعر بالغيرة من ابنتها المدللة ثم تزيد جرعة دلالها ليضحك الجميع، ويستيقظ أخوها الصغير على صوت ضحكاتهم، فيشجب ويستنكر إيقاظه من النوم عنوة لتبدأ في تنمرها على الأخ الأصغر، فيقرر ألا يتركها ويجذب أداة التنظيف ليقوم بملاحقتها وسط ضحكات الأب والأم حتى يقترب أخوها الصغير منها ويضربها بأداة التنظيف فتؤلمها لتستيقظ من حلمها الجميل إثر شعورها بألم الضرب بالقشاط ليوبخها (سيف) قائلًا:

-صح النوم، الهانم لسه نايمة! ومعملتيش غدا لسيدك طبعًا؟!

ارتد جسدها في رعبٍ ليعاود ضربها بالقشاط حتى تنغرز مقدمته الحديدية في جسدها، فتصرخ لينتشي ويستمتع، فتنزف دمًا، ويسعد لرؤية دمها المنساب حتى تفقد الوعي، فيصل إلى قمة نشوته ويقوم

بمعالجة آلامها، وكأن شيئًا لم يكن! لقد ازداد بغضها له، تدعو اللّه كل يومٍ أن تجد مخرجًا، ولا تعلم أن نهايته بالفعل قد اقتربت!!

*****

كان (محمد) عائدًا إلى منزله، يقدم قدمًا ويؤخر أخرى، فلم يعد يستطيع التعايش مع حالة زوجته تلك، وفي أثناء سيره، قابلها مصادفة، سيدة في منتصف عقدها الرابع، بيضاء البشرة، ذات عينين سوداوين، وشفتين مكتنزتين، ترتدي عباءة ملونة، وغطاء رأسٍ قصيرًا، تجاهد في سيرها لثقل وزنها، باغتته مرحبة:

-إزيك يا (أبو أحمد).. عامل إيه؟ و(منال) عاملة إيه دلوقت؟ لسه تعبانة؟

تعجب (محمد) لسؤالها، هل كانت زوجته مريضة؟! ولمَ أخفت مرضها عنه؟! أراد معرفة المزيد منها دون أن تدرك جهله بالأمر، فقال:

-آه واللّه يا (أم إسلام) لسة تعبانة شوية، ما انتِ عارفة تعبها كان صعب.

أومأت (أم إسلام) في أسى قائلة:

-آه واللّه يا (ابو أحمد).. نزول العيل ده مش بالساهل، دي تعتبر ولادة برضه، معلش ربنا يعوضكوا عن اللي راح، ويبارك لكم في (أحمد) واخواته، بس أنا زعلانة منك، يعني نازل من بره بقالك سنة أهوه من

قبل (منال) ما يجرالها اللي جرى، ولا تقول أعدي على (أبو إسلام) ولا أطمن عليه، مكانتش جيرة دي ولا عشان عزلتوا خلاص نسيتونا؟

حاول (محمد) السيطرة على تعابير وجهه التي اتقدت نارًا كأن أحدهم قد طعنه بسكينٍ حاد.. لينهي الحديث سريعًا قبل أن يفتضح أمره قائلًا:

-معلش غصب عني.. مشاغل، سلميلي على (ابو إسلام).

ثم تركها عائدًا إلى بيته، وقد قرر أن يمزق تلك العاهرة التي بعثرت كيانه ولوثت سمعته!

جلس ثائرًا كالبركان بعينين حمراوين ووجهٍ مظلم بعدما أشبع زوجته ضربًا وسبًّا وتعذيبًا أمام أولاده الصغار، وقد أجبرها على إخباره بكل شيءٍ، ففعلت مرغمة لتبرئ نفسها من تلك التهمة الفادحة، أخبرته بكل ما مرت بها نفسيًّا وجسديًّا، وإن كان خطأها الوحيد أنها خرجت من بيتها دون إذنٍ منه، فقد نال العقاب من روحها المعذبة!

اشتعلت حدقتاه وقد التف حوله مجموعة من الشياطين لتمده بالكثير من الأفكار السامة التي تمزقه، ورغبة الانتقام تسيطر على خلاياه كأنها مرض سرطاني، لا يستطيع إيقافه ثم قال:

-لمي هدومك انتِ والعيال وروحي على بيت أمك.. مش طايق أبص في وشك.. وما تخافيش مصاريفكوا حتوصلكوا لحد باب البيت.

-(محمد).. أنا!

حاولت أن تتوسل إليه لكنه الآن بعدما استجمعت شجاعتها وأخبرته بكل ما حدث، أصبح يفكر في كيفية الانتقام من هذا الحقير ليصرخ غاضبًا:

-قسمًا بالله ما هارحمه!

ثم أردف موجهًا كلماته اللاذعة إليها:

-وانتِ يا مدام يا محترمة يا بنت الأصول يا اللي مسحتِ بكرامة جوزك وعرضه وكلمته الأرض، وعرضتي نفسك لكلاب السكك ينهشوا فيكِ، وأنا متغرب ومتبهدل عشان محوجكيش انتِ وعيالك لحد، قدامك عشر دقايق تكوني خدتي حاجتك وجريتي من قدامي بسرعة عشان بعدها أنا مش مسؤول عن اللي هاعمله فيكِ!

تعلم أنه يحبها لكنه لن يستطيع السيطرة على غضبه، لذا نفذت ما أمرها به، وصوت نحيبها يجتاح أذنيه في الخارج، يمزقه فتستعر نار الانتقام المشتعلة داخله أكثر، فيقرر أن يذيق الجاني كل ألوان العذاب..

*****

الاغتراب.. كمنجم تحت الأرض ممتلئ بما تشتهيه، يدفعك نحوه الكثير من ضغوطٍ الحياة، وتجذبك مغناطيسيته للخوض فيه بلا تفكير.. ولكن مهلًا.. هناك عقد يجب أن توقع عليه أولًا، عقد مفتوح تتفاجأ بشروطه كلما مر عام وأنت حبيس ذلك المنجم.. عقد يتجدد

بمفاجآت لا قبل لك بها، وأول شرط الحصول على لقب (مغترب).. ليس مغترب عن الوطن فحسب بل مغترب عن قلوب من كانوا جزءًا منك لتمر السنون وقد أصبحت أسير المنجم، وزادت أعباؤك كلما زادت شروط العقد لتكتشف أنك فقدت الكثير مقابل القليل، فقدت قلبك.. فقد حولتك طعنات الخذلان إلى شخصٍ لا يشعر حتى بألمه، وهنا تقف مع نفسك، فتقرر العودة لتصطدم بواقعٍ لم يعد واقعك، وبلدٍ لم تعد لك، وذكرياتٍ اندثرت تحت وطأة الجميع.. لقد عاد هاربًا من هذا الاغتراب لاستعادة آدميته، فيتفاجأ بحال زوجته وما حدث لها، لعن كل شيءٍ حتى منطقه! فلقد أثار هذا الحقير، الوحش الراقد في داخله، ليته ما فعل! حاول الوصول إلى هذا الطبيب بكل السبل، تمكن منه اليأس بعدما علم أنه ترك عيادته لكنه لم يستسلم حتى علم بمكان المشفى الذي يعمل فيه (سيف) ومن ثم توصل إلى مكان عيادته ثم راقبه حتى وصل إلى بيته، لقد حَكم عليه جراء جريمته بحُكمٍ نهائي لا رجعة فيه؛ ألا وهو الإعدام، لكن ليس شنقًا أو حتى رميًا بالرصاص، فلا بد أن ينال من العذاب ما يشبع رغبة الزوج المكلوم في الانتقام!

ظل (محمد) يتردد على أحد المقاهي المقابلة لمنزل (سيف).. يراقبه لعدة أيام حتى علم كل شيءٍ عنه، وقت ذهابه إلى عمله، ووقت عودته، ومع من يقطن، فقد أخبره أحد الجيران أنه يسكن مع زوجته، وأنها لا

تخرج أبدًا من البيت مما جعله يتمهل في تنفيذ ما ينتويه حتى تحين اللحظة المناسبة..

*****

وبعد مرور عدة أيام

شعرت بألمٍ شديد يكاد يفتك بها، كأن ألف خنجرٍ يطعنون جسدها بلا هوادة، تمسك برأسها لتكتم صرخاتها حتى لا يستمع لها حد.. لقد تأخر موعد وصوله إلى المنزل لأول مرة لقيامه بعمل جراحة عاجلة لأحد المرضى في عيادته، كاد الألم يمزقها، فلقد فات موعد تناول دوائها أو دائها بالمعنى الصحيح، أخذت تفتش عن أثرٍ له في كل أرجاء المنزل بلا فائدة، فهو لا يتركه في متناول يدها حتى أنها لا تعلم اسم تلك الحبات كي تظل تحت رحمته ملتفة بقيده ما دامت على قيد الحياة.. لقد منعها من الخروج لكن آلامها فاقت كل الحدود، لم تستطع الصمود أكثر، فقامت بتبديل ملابسها ووضعت غطاء رأسها ثم خرجت من البيت دون تفكير قاصدة مكان عيادته الجديدة لكن حين تركت مدخل البناية، وقعت في منتصف الطريق منهكة، وهنا هرول (محمد) نحوها ليحملها كأي رجلٍ ما زال لديه بعض المروءة كما قامت امرأتان بإيصالها معه إلى باب شقتها، والذي صُدم حين وجد عليه اسم عدوه، استغل فقدان (حياة) لوعيها وأخبر السيدتين أنه شقيقها ثم شكرهما للمساعدة، غادرت السيدتان ثم دخل وقام

بإغلاق الباب، كانت مستلقية على الأريكة، تسللت الأفكار السامة إلى عقله، كان على رأسها «لا بد أن تفعل كما فعل زوجها، هذه فرصتك، العين بالعين، والسن بالسن، وهو من بدأ بالظلم.»

كاد أن يتبع شياطينه ويفعلها لكنه توقف حين استفاقت مرتعدة وآثار الإدمان جلية عليها، حاولت النظر إليه ثم تحدثت قائلة:

-أرجوك ساعدني.. هربني من هنا بسرعة قبل ما يجي.. أرجوك!

ثم سقطت مغشيًّا عليها.. وهنا قرر تركها لفكرة جالت في خاطره لكن بدلًا من الخروج، صعد إلى أعلى الدرج يترقب.. لم يمر الكثير من الوقت حتى رأى (سيف) يدخل إلى شقته، ولأن (محمد) كان يقف مختبئًا أعلى الدرج، فلم يلاحظ (سيف) وجوده، وحين دخل، سمع صرخاته محاولًا استرداد وعيها، وقد بدا له أنه نجح في ذلك بالفعل حين سمع صوت صراخ، دقائق مرت، لم يستمع فيها إلى شيءٍ آخر لكنه شعر أن شخصًا ما يصعد الدرج، فقرر الرحيل سريعًا حتى لا يلفت انتباه أحد، والعودة لتنفيذ ما قد هداه إليه عقله...

وفي اليوم التالي، حين خرج (سيف) للعمل، كان (محمد) ينتظر تلك اللحظة في شغف، صعد إلى شقته على عجل، وحين قامت (حياة) بفتح الباب، دخل واضعًا يده على فمها ليغلق الباب بقدمه ويهمس قائلًا:

-اهدي يا مدام، أنا مش هأذيكِ، بالعكس أنا هساعدك، أنا اللي

طلعت لك امبارح شقتك لما أغمى عليكِ.. فاكرة؟
وهنا سكن جسد (حياة) وتوقفت عن المقاومة، فأزاح يده عن فمها، والتفت لتواجهه، فأردف قائلًا:
-انتِ امبارح طلبتي مني أساعدك وأهربك من هنا، مش كده؟
شعرت (حياة) بالخوف من هذا الغريب الذي اقتحم حياتها وبيتها بلا مقدمات، فقررت ألا تجازف، ربما تود الهروب والانتقام من زوجها لكنها لا تضمن العواقب، فكيف تثق بشخصٍ غريب بينما القريب قد فعل بها الأفاعيل؟!
-أنا مش فاكراك ومش عاوزة مساعدة من حد.. اتفضل اطلع بره حالا!
وهنا ابتسم (محمد) وحدق إليها قائلًا:
-هو اللي عمل فيكِ كده؟
حينها شعرت بالدهشة، وحدثته في عنفٍ قائلة:
-يعني إيه عمل فيا كده؟! مالي يعني؟ وبعدين انت مالك أصلًا؟! قلت لك اتفضل بره وإلا هاصرخ وألم الناس عليك، والبوليس يجي ياخدك.
لكنه خيب كل توقعاتها ودخل ليجلس على إحدى الأرائك في الردهة مبتسمًا في سخريةٍ ثم قال:
-أولًا أنا مش هاطلع بره، أنا فيه تار بيني وبين جوزك المحترم، ومش

هاطلع من البيت ده إلا وروح جوزك طالعة معايا، ولو على الصريخ والبوليس والكلام ده، فأنا هاكلم جوزك دلوقت وأقوله إني عشيقك وقاعد في بيته، خليه يجي بقا ونخلص احنا التلاتة على بعض ونرتاح كلنا.

هنا انهارت (حياة) باكية ثم قالت:

-انت عاوز مني إيه؟ حرام عليك كفاية اللي أنا فيه، مش كفاية اللي هو عملوا فيا! انتوا ايه متعرفوش ربنا، محدش فيكوا بيتقي الله!!

وهنا قاطعها (محمد) في حنقٍ قائلًا:

-لا يا مدام، جوزك هو اللي ميعرفش ربنا، ولا عنده دين ولا ضمير ولا ليه كبير، ماشي يدوس على خلق الله كأنه مش مخلوق من نفس طينتهم.

ليردف في نبرةٍ مستعرة كالجمر قائلًا:

-تحبي تعرفي عمل إيه؟ جوزك اغتصب مراتي وضربها وأهانها، ومش كده وبس، ده ابن الـ (....) مضاها على وصل أمانة بربع مليون جنيه تحت التهديد عشان تسكت ومتبلغش عنه، إيه رأيك في الحدوتة دي؟.. حلوة؟! تحبي أكمل؟

ثم أكمل حديثه لتستمع في ذهول:

-مراتي اكتشفت بعدها بفترة إنها حامل من جوزك، مراتي حامل وجوزها اللي هو أنا مسافر، حطي نفسك مكانها يا مدام، طبعًا

حاولت تتخلص من الجنين بأي طريقة، سقطت نفسها وعرضت حياتها للموت واتمرمطت واتبهدلت في المستشفيات، وهي ساحبة وراها تلت عيال، وخبت على كل الناس حتى أمها عشان ما تتفضحش، كانت بتموت في اليوم مليون مرة بسبب عملة جوزك اللي ملهاش أي مبرر غير إنه وحش مريض، لا عنده دم ولا دين ولا شرف.. عارفة عمل فيها كده ليه؟ عشان ردت عليه، شتمته لما هان كرمتها وضيع تعبها وحب يستعبدها زي ما بيستعبد كل اللي حواليه، تفتكري لو انتِ مكاني هاتسبيه يعيش يوم كمان؟ أنا أعرف ربنا كويس أوي يا مدام، بس جوزك اللي محتاج حد يعرفه ربنا، والحد ده هيكون أنا.

في تلك اللحظة، ومع آخر حروفه استحضرت (حياة) ما يفعله زوجها كل يوم، شعرت حينها أنه قد جاء وقت الحساب، لا بد من محاسبة زوجها على كل جرائمه، لا بد من معاقبة خالتها وحرمانها من ابنها الوحيد جراء ما اقترفته من ذنوب، لا بد من وضع نهاية لتلك المهزلة.

-أنا موافقة أساعدك!

*****

العودة للوقت الحالي

بعد مرور أربعين يومًا (مدة حجزها في قسم ٨ غرب) ازدادت حالتها سوءًا، حتى أن الطبيب المشرف على حالتها (عصام) بات على يقينٍ الآن من مرضها النفسي، وقد زالت جميع شكوكه، خصوصًا

بعدما ظهرت نتيجة تحليل الدم وتبين من خلالها تعاطيها حبوب (الكيتامين) المخدرة، وهذا هو السبب الرئيسي لعدم شعورها بالعالم الخارجي، وأدى أيضًا إلى إصابتها بالاكتئاب الهستيري الحاد، وما عاق ظهور هذا في أول تحليل، تناولها وسيلة منع الحمل، لا أكثر! فقام بكتابة تقريره الطبي ليصبح جاهزًا لعرضه على المحكمة

*****

في مكانٍ آخر

كان (حمزة) قد وصل إلى بيت أبيه في إجازةٍ سريعة، لا تتعدى اليومين، وذلك للعودة سريعًا لحضور جلسة المحكمة بصفته وكيل (حياة) ومتابعة سير القضية:

-خلاص يا بابا، كفاية لوم في نفسك، متحسسنيش بالذنب، أنا ما كنتش عاوز أقولك عشان كده.

قال هذا (حمزة) موجهًا حديثه إلى والده (حسن) ابن عم والد (حياة) والذي كان يعض على يديه ألمًا وندمًا قائلًا:

-أنا السبب، أنا اللي فرطت في لحم ابن عمي واخويا (حسين) وسمعت كلام أمك، يا عيني عليكِ يا بنتي.. بس أنا مطمن إنك معاها يا (حمزة) يا ابني، اوعى تسيبها يا (حمزة) ولا تتخلى عنها، حاول تخرجها من القضية دي يا ابني بأي طريقة.

اعتدل (حمزة) في جلسته ليطمئن أباه، ويربت على كتفه قائلًا:

-يا بابا، ما تقلقش، هي كده كده خارجة، بس ااا...

وصمت برهة لينتقي كلماته لكن القلق تمكن من والده في تلك اللحظة، فحثه على الحديث قائلًا:

-بس إيه يا (حمزة)؟ ما تكمل يا ابني، ما توجعش قلبي.

ليجيبه (حمزة) في حزنٍ قائلًا:

-هتخرج بس على المصحة.. مش البيت.

شعر (حسن) بالصدمة، وتزاحمت في عقله أسوأ الأفكار ليتساءل في قلقٍ قائلًا:

-مصحة يعني ايه يا ابني؟ فهمني!

حاول (حمزة) أن يهدئ من روعه، ويطلعه على حقيقة الأمر قائلًا:

-يا بابا، يعني مش أحسن ما كانت تتعدم، الحمد لله هي هتروح مصحة لأن جوزها الله يسامحه بقا كان سبب في إنها تدمن المخدرات، وكمان جالها مرض نفسي، ولازم تتعالج من كل ده، يعني ع الأقل هتفضل فيها سنة أو سنتين.

وضع (حسن) كلتا يديه على رأسه في ألمٍ اجتاح كل جزءٍ منه، وقد شعر (حمزة) بما أصابه، فحاول تهدئته قائلًا:

-بص يا بابا، أنا ما كنتش عاوز أقولك حاجة عن الموضوع ده عشان عارف قد إيه هتضايق، بس اللي خلاني أقولك دلوقت، إننا لازم نساعدها وندخلها مصحة خاصة، ده اللي هاطلبه من القاضي بعد

ما تخلص مدة حبسها في المصحة الحكومية، ولو ده حصل واتحولت مصحة خاصة، فده هيحتاج فلوس، وفلوس كتير، أنا عن نفسي هساعد باللي معايا عشان يهتموا بيها ويراعوها كويس، ونضمن إنها تتعالج فعلًا، وأنا بالفعل أعرف مصحة بتاعة دكتور ممتاز وسمعته نضيفة اسمه (أشرف مدبولي).. مش زي المصحات التانية اللي معندهاش ضمير وبيعذبوا ويضربوا المرضى، و(حياة) شافت كتير يا بابا، وكفاية عليها عذاب لحد كده.

رفع (حسن) رأسه كأنه يبحث عن ضالته، أو ربما يفكر في شيءٍ ما ثم قال:

-أنا معاك يا ابني، هادفع اللي تطلبه وربنا يقدرني حتى لو اضطريت أبيع من الأرض وأصرف عليها هاعمل كده، وربنا يسامحني على تقصيري معاها السنين اللي فاتت، بس أنا ليا عندك طلب هتنفذه من غير ما تسأل ليه وعشان إيه.

أجاب (حمزة) قائلًا:

-أؤمر يا بابا، طلباتك على راسي، خير؟

-تعيش يا ابني، طلبي إن أمك متعرفش أي حاجة عن موضوع (حياة) ولا إنها اتجوزت أساسًا.

قالها (حسن) في صرامة ليشعر ابنه أن الأمر جلل، فأجابه مؤكدًا:

-حاضر يا بابا، مش هاقولها أي حاجة، ده وعد، وكمان مش هسألك

ليه.

اطمأن قلب (حسن) ليجيبه قائلًا:

-تسلم يا ابني من كل شر، ويبارك لي فيك.

بينما كان طلب والده منه، هو في الحقيقة مبتغاه، إنه يريد بالفعل ما أراده والده، يرغب أن تقطن (حياة) معهم في المنزل، ويعلم جيدًا أن والدته صعبة المراس، وأنها لن تقبل هذا إذا علمت ما حدث، لذا فإن إخفاء الأمر برمته هو أسلم الطرق.

*****

كان زوجها جالسًا على كرسيه المتحرك في الأعلى، يحدق إليها في أسفٍ على ما تفعله بعد مقتل ولدها، يبدو أنها لم تتعظ بعد، وأن قسوة القلوب تصيب العقول بالشلل! نار مشتعلة في قلبها وعقلها، تود حرق ابنة شقيقتها حية، لا تصدق أنها فقدت ابنها الوحيد، وإن كان متحجر القلب لكنها ما زالت أم، ربما ما فعلته سابقًا من تربيةٍ فاسدة لابنها، كان عن جهل، لكن ما فعلته مع (حياة) وما زالت تفعله، ينم عن الحقد والضغينة، لقد اعتادت الخطأ، امتلكت المال، فامتلكت القوة التي غيرت قلبها حتى ظنت أن كل ما تفكر فيه لا غبار عليه، وكل ما تدعيه عين الحقيقة!

جلست باكية، تنتحب أمام مقدم البرامج الشهير قائلة:

-ابني راح هدر يا أستاذ، قتلته وحرمتني منه، مكانش ليا غيره، كان

هو اللي بيعطف عليا ويخدمني.
ليحاول مقدم البرنامج مواساتها قائلًا:
-ربنا يصبرك يا حاجة، شدي حيلك يا أمي، قولي لنا إيه اللي حصل من الأول خالص.
-أبدًا يا ابني، أختي ماتت هي وجوزها وابنها في حادثة، وفضلت بنتها دي...
قاطعها المقدم قائلًا:
-دي اللي هي كانت مرات ابنك الله يرحمه، مش كده؟
-آه هي، منها لله، فتحت لها بيتي وأويتها وعيشتها معايا، محدش من أهل أبوها رضي بيها، خدتها أنا وعيشتها أحلى عيشة وقدمت لها في الجامعة وجوزتها ابني الدكتور حبيبي.. ابني حبيبي.
ثم أجهشت بالبكاء لتردف قائلة:
-فجأة لقيتها عملت مشكلة وقالت له مش عاوزة اقعد مع أهلك، خدلي سكن بره، كلمتها بالراحة، ليه يا بنتي كده؟ محدش فينا زعلك، والبيت كبير ومحدش فيه غيرنا، صممت تمشي وعملت له مشكلة كبيرة وخناقات، قلت له خدها يا ابني براحتها.
ليقاطعها المقدم قائلًا:
-وخدها فعلًا وسكنوا في شقة لوحدهم بعيد، طيب إيه بقا سبب الخلاف؟

لتجيبه في افتراء عل نار فراقها لولدها تهدأ:

-بس يا ابني لقيتها بتكلمني وتقولي أنا زهقت من ابنك ومن عيشته، أنا هانتقم منك ومنه، وراحت حطاله المنوم وقتلاه يا ضنايا وهو مديها الأمان، طعنته في ضهره وبطنه، وسابت جثته مرمية في الشقة، لحد الجيران ما شافوها وبلغوا عنها.

-بس تحقيقات النيابة بتقول إنه كان بيضربها ومبهدلها؟

-كدب يا أستاذ، كل ده كلام المحامي قريبها، عشان يطلعها براءة ويضيع حق ابني، ده انا ابني مكانش فيه حد في حنيته عليها وعلى الكل، عمره ما زعلها ولا مد إيده عليها إلا مرة واحدة لما لقى شباب بيكلموها على الموبايل، خده منها وأدبها.

-وامتى طيب عرفتوا اللي حصل؟ يعني الموضوع وصلكوا ازاي؟

أجهشت بالبكاء قائلة:

-كنت قاعدة يا ابني، لا بيا ولا عليا، لقيت واحد بيكلمنا، بيقول انا الظابط الفلاني من قسم كذا، حصل كذا كذا، وابنكوا في المشرحة، تعالوا استلموا جثته، وبعيد عنك يا ابني، ميكتبهاش على حد، نار قادت في قلبي، وعرفنا إن اللي منها لله، المحامي بتاعها قريبها، من عيلة أبوها، طلعها مجنونة عشان يخرجها من القضية وحق ابني ضاع، حسبي الله ونعم الوكيل فيه وفيها، حقي ابني عندك يا رب.

قام مقدم البرنامج بمواساتها وتقبيل يدها ورأسها ليلعن المشاهدون

(حياة) مع وصفها بأبشع الصفات، ولا مانع من لعن القضاء الغير عادل، وقانون الثغرات!!

*****

مر عام على وجود (حياة) في المصحة النفسية التي حكمت عليها المحكمة بالمكوث فيها لمدة عام لتلقي العلاج بناءً على الأوراق التي قدمها (حمزة) إلى هيئة المحكمة بما في ذلك تقرير الطبيب النفسي المكلف بمتابعتها بقسم (٨ غرب).. (دكتور عصام) والذي أوضح في تقريره أن المتهمة تعاني من (الفصام البارانوي) بالإضافة إلى (الاكتئاب الهستيري) نتيجة تعاطي العقار المخدر، وأنها تعد خطرًا على من حولها كما أنها كانت مغيبة حين ارتكبت جريمة القتل.. وبالفعل تم نقلها إلى المصحة النفسية الحكومية، والتي مكثت فيها عامًا واحدًا، حاول (حمزة) تحويلها إلى مصحة خاصة بعد تلك المدة مستندًا إلى سوء حالتها الصحية، وقد نجح بالفعل، والآن بعد مرور شهرٍ واحدٍ من تلقيها العلاج في تلك المصحة الخاصة، جلست في الحديقة تحدق إلى الفراغ، شرعت في استرجاع ذكرى، حاولت نسيانها قدر المستطاع لكنها لا تنوي مغادرة ذاكرتها أبدًا، تلاحقها في القيام والمنام.

*****

قبل يومين من حدوث الجريمة

-كل اللي طالبه منك، تحطي له المنوم ده في أي حاجة، شاي، قهوة، عصير، برسيم حتى، المهم ده يحصل النهاردة، وأنا هاستنى على القهوة تحت البيت، أول ما ينام تكلميني هاطلع لك على طول، اتفقنا؟

وجه (محمد) هذا الحديث إلى (حياة) التي بدا أنها في عالمٍ آخر، فصفق ليختبر انتباهها قائلًا:

-انتِ معايا يا ست المرحومة ولا إيه؟! لا بقولك إيه، مش وقت توهان وإدمان دلوقت خالص، اتفضلي الحباية أهيه اللي هتحطيهاله، وده رقم تليفوني أهوه.

أخذت (حياة) حبة الدواء ورقم هاتفه في شرودٍ حتى كاد يخرج من باب المنزل، فأوقفته في نبرةٍ متقطعة:

-أأاكلمك إزاي؟.. أاا أنا مش معايا تليفون!

التقط نفسًا عميقًا ليزفر في غضبٍ قائلًا:

-يا نهار ازرق على سنيني السودة! مستني إيه أنا من واحدة برشمجية! هي الحالة جات لك ولا إيه؟! يا بنت الناس ركزي معايا بدل ما اخلص عليكي انتي بداله، اسمعي يا ست، انتي هتحطيله الحباية هينام، تشاوري لي من الشباك.. تمام، وأنا هافضل حاطط عيني ع الشباك من أول ما أشوفه طالع عندك لحد ما تندهيلي منه.. تمام؟!

أومأت (حياة) موافقة، وبالرغم من أن (محمد) لا يثق بها إلا أنه

ليس لديه حل آخر!!

نفذت الخطة المتفق عليها، وانتظرت حتى غط في نوم عميق ثم اقتربت منه لتحدق إلى ملامحه، كيف تحمل تلك الملامح الساكنة هذا القدر من العواصف والغضب والكراهية؟! ترددت في تنفيذ باقي الخطة لكنها تذكرت ما فعله، شاهدت آثار الجروح والحروق على جسدها، استرجعت كل آلامها، لحظات ضعفها أثناء انتظارها المخدر، وفي تلك اللحظة، بدأت الآلام تعود إلى جسدها من جديد، كأنها تستمع إلى أفكارها، وبدأ العالم يظلم من حولها، فقامت على عجل قبل أن تفقد ما تبقى من قوتها لتطل من النافذة وتشير إليه في إيماءة، فتحت باب شقتها، فدخل على عجل، في يده حقيبة بلاستيكية سوداء ليحدق إلى عدوه الملقى على الفراش، فيبتسم ابتسامة فهدٍ أنهكته الطرق عدوًا حتى وصل إلى فريسته، ألقى نظرة على من تقف بجواره ليجدها ملقاة أرضًا، تحاول كتم صرخاتها، ففهم ما تعانيه، أسرع بفحص ثياب (سيف) ليجد علبة دواءٍ تحتوي الكثير من الحبوب المخدرة، حين أخرجها من جيبه، هرولت إليه لتلتقطها عنوة لكنه كان أسرع، وضعها في جيبه، فسقطت (حياة) على الأرض مرة أخرى، حملها ووضعها على الكرسي ليقيدها قائلًا:

-هتسمعي الكلام وتهدي، هاريحك واديكي الحباية.

فأومأت موافقة، وجسدها ينتفض ألمًا بينما وقعت عيناه على أحد

الصناديق الغريبة ذات الطراز القديم في الغرفة، فلاحظ نظرتها التي تحولت إلى رعبٍ مما أثار فضوله، فقام بارتداء قفازين، أخرجهما من الحقيبة البلاستيكية التي أحضرها معه، وذهب ليفتح الصندوق، ليصدمه ما رأى، وقد توقع من نظراتها أن زوجها يستعمل تلك الأدوات في تعذيبها، فابتسم ابتسامة شيطانية ليخبرها قائلًا:

-متهيألي جه الوقت اللي لازم هو كمان يجرب الحاجات الحلوة دي ويدوق اللي دوقهولك ودوقه لمراتي، ويمكن أشد شوية.

*****

حاول (سيف) فتح عينيه في صعوبة حين شعر أن رأسه ثقيل للغاية لتقع عيناه على قيد يديه وقدميه، وقفت (حياة) على يساره في حالةٍ من الهذيان والنشوة، فاستنتج أنها تناولت جرعة المخدر اليومية لكن لحظة!! إنها أيضًا مكبلة تمامًا على الكرسي بجوار الفراش، وأمامهما يجلس رجل غريب، يحدق إليه مباشرةً، وعلى وجهه ابتسامة شامتة، تنم عن حقدٍ دفين، باغته قائلًا:

-صح النوم يا دوك.

حدجه (سيف) في غضبٍ محاولًا فك قيده ثم قال:

-انت مين يا ابن الـ....؟! ودخلت بيتي ازاي؟ ده أنا هاوديك في ستين داهية.

بينما نظر إلى زوجته في غضبٍ، جعلها تنكمش في جلستها، فتحدث

(محمد) قائلًا:

-لا مالكش دعوة بيها، ركز معايا أنا هنا.

ثم اقترب منه وصفعه قائلًا:

-دي عشان متغلطش تاني في سيدك، اللي هو أنا.

ثم صفعه مرة أخرى قائلًا:

-ودي ردي على سؤالك.. أنا مين، أنا واحد بسيط على باب الله، عامل غلبان، اتغرب عشان يقدر يعيش في بلدكوا دي، بلد الفقير بينداس عليه فيها عشان محدش بيشوفه، قلت أسافر يمكن تشوفوني، أسيب أهلي وأهل بيتي وأهين نفسي لكفيل يسخرني عنده زي العبيد، مش مهم، المهم أحوش قرشين وأعيش مراتي وعيالي التلاتة أحسن عيشة ومحوجهمش لحد، عشان يجي في الآخر كلب نجس زيك يتعدى على مراتي وشرفي وعرضي ويمضيها على وصل عشان يقطع لسانها وحقها يضيع.. دنا هاوريك أسود أيام حياتك.

حاول (سيف) الصراخ لعل أحدهم ينقذه لكن (محمد) وضع على فمه ملصق بلاستيكي قوي ليكمم صوته:

-لاا اجمد كده يا دكتور، ده انت هاتشوف العذاب ألوان، أصل أنا بقا مقلتلكش، أنا دكتور زيك بالظبط، بس في السباكة بدل البني آدمين، وبالنسبة لك مفيش فرق كبير يعني، شوف جبت لك إيه معايا.

ليخرج من حقيبته السوداء مقصلة مستطيلة الشكل، تستخدم في

قص الأنابيب البلاستيكية الخاصة بأعمال (السباكة).. ارتعد (سيف) حين نظر إليها محاولًا فك قيوده الحديدية بينما ضحكت (حياة) في هذيان حين رأته على تلك الحالة من الخوف لأول مرة في حياته ليردف (محمد) قائلًا:

-ما تخافش يا دكتور، دي لزوم العملية اللي هاعملهالك، بس ما تخافش، مش هعملهالك دلوقت، لازم أعرفك الأول يعني إيه عذاب، وأوعدك مش هاخلي فيك حتة سليمة.

*****

في صباح اليوم التالي

ما زال الوضع كما هو.. (سيف) ممدد على الفراش، يئن وفي جسده العديد من الجروح والحروق المتفرقة والمضمدة بقطع (الشاش) بعدما ظل (محمد) يذيقه الكثير من الآلام طوال الليل، أما (حياة) فكانت على الكرسي بجواره تنتفض من الألم لأنها في حاجةٍ إلى تناول جرعة المخدر، والتي منعها عنها (محمد) لحاجةٍ في نفسه أخفاها بينما جلس أمامهما يتناول فطوره في استمتاعٍ قائلًا:

-ها.. تحب أعملك ساندوتش قبل ما تموت؟ ولا أقولك موت خفيف أحسن.. يلا أنا هامشي بقا بس لازم آخد منك تذكار قبل ما امشي، معلش بقا تقلت عليك.

ثم وجه الحديث إلى زوجته قائلًا:

-اتحملي يا مدام.. هانت.

جحظت عيناها حين رأته يخرج المقصلة مرة أخرى ليقوم ببتر عضو زوجها الذكري.. ثم وضعه في الكيس البلاستيكي تاركًا (سيف) ينتفض ألمًا وقهرًا في الفراش ليحرر (محمد) قيد (حياة) وأعطاها قرصين من الحبوب المخدرة، وانتظر حتى تناولتهما ثم أعطاها أداة قطع الأوراق (الكتر) قائلًا:

-أنا خدت حق مراتي ومرضتش أحط نهايته، سيبتهالك تاخدي حقك بمعرفتك، وافتكري إن كل اللي جرالك وكل الألم اللي شفتيه وهاتشوفيه في حياتك كان هو.

ثم خرج هاربًا دون أن يترك أي أثر لوجوده!

في تلك اللحظة، كانت (حياة) غير مدركة لما يحدث بعدما تناولت المخدر، ترنح جسدها يمينًا ويسارًا بينما باتت رؤيتها مشوشة، اقتربت من (سيف) الذي كان يئن من فرط الألم، ونزعت الملصق من فمه ليبادرها بالسباب لتركها له هكذا دون مساعدته، وتوعدها بالانتقام حين يسترد صحته، فاستقرت الأداة الحادة (الكتر) في بطنه، وشعرت بدمائه الحارة، تنسكب على ثيابها، وروحه تفيض إلى بارئها في لحظة لتسقط جالسة بجوار الفراش في حالةٍ من الهذيان والسكون، تحدث نفسها بكلماتٍ غير مفهومة لتتحول كلماتها إلى بكاءٍ حار محطمة كل شيءٍ حولها، فتحول بكاؤها إلى ضحك هستيري حين

فتحت باب شقتها ليستمع الجميع إلى ضحكاتها العالية وصرخاتها الهستيرية ثم هرولت على السلم في سرعة البرق، وثيابها غارقة في بحرٍ من الدماء!

حضر (حمزة) لزيارتها كعادته كي يخرجها من ذكرياتها - التي تمزق نياط قلبها - قائلًا:

-عاملة إيه النهاردة؟

أجابت مبتسمة:

-بخير يا (حمزة).. الحمد لله.

وضع (حمزة) يده في جيب بنطاله، وأخرج شيئًا صغيرًا ليخفيه خلف ظهره قائلًا:

-تعرفي.. رحت البلد امبارح وجبت لك هدية من هناك، تفتكري هي إيه؟

اختفت ابتسامة (حياة) وذهبت بعيدًا بذاكرتها حيث آخر مرة استمعت إلى تلك الكلمة (هدية) في عيد ميلادها الثامن عشر، آخر عيد ميلاد لها وسط أبويها وأخيها الصغير الذي استعار بعض النقود من والده، وابتاع لها هدية أحبتها كثيرًا، وقد فعل مثلما فعل (حمزة).. أخفاها وطلب منها أن تكتشفها.. سمعت صوته يناديها قائلًا:

-(حياة).. مالك؟ رحتِ فين؟!

لتنتبه إلى حديثه قائلة:

-هه.. لا أبدًا، أنا معاك يا (حمزة).. يلا قول جبتلي إيه.

حدق إليها مبتسمًا ثم قال:

- فاكرة لما كنتِ بتجيلنا البلد في العيد وانتي صغيرة، كنتي بتطلبي مني كل عيد نفس الطلب.. فاكراه؟

لاحت على وجهها ابتسامة حنين إلى الماضي قائلة:

-ساعة.. ساعة ذهبي بأستيك من دكان عم (محروس).

وضعها في يدها قائلًا:

-عارفة لقيتها فين؟ في حاجتي القديمة اللي كنت رميها فوق الدولاب بتاعي من سنين، من آخر عيد كنتوا عندنا فيه وجبتهالك.

ليردف في لوم مصطنع قائلًا:

-وحضرتك نسيتيها ومشيتي، يومها زعلت جدًّا وشلتهالك، ومن يومها مع حاجتي اللي باحتفظ بيها فوق دولابي.

حدقت إلى الفراغ حولها، فعلم (حمزة) أن حالة الهذيان قد عادت من جديد، فقام بمناداة الممرضة المسؤولة، والتي رافقتها إلى غرفتها لتلقي العلاج بينما رن جرس هاتفه ليجيب قائلًا:

-أيوه.. كله ماشي زي ما اتفقنا، أنا هاروح أخلص إجراءات خروجها من المصحة دلوقت، واخد الشهادة عشان أكمل اللي اتفقنا عليه.

في مكانٍ آخر

بعدما ثأر لزوجته، قرر السفر تاركًا إياها في بيت والدتها ممزقة القلب، حاول كثيرًا أن يغفر لها لكن الرجل الشرقي الذي داخله أبى أن يفعل، في كل مرة يجول طيفها في خاطره، يتذكر صورة هذا الحقير وما فعله، مكث في سفرته عامًا ثم أخذ قراره، والقرار غالبًا ما يأتي في لحظة يفقد الإنسان فيها نفسه ثم تعيدها الصدمة إليه من جديد، وقد قرر ألا يغترب مرة أخرى، لن يترك زوجته وأولاده أبدًا.. ذهب إلى بيت والدة (منال) ليعيدها إلى بيتها، لن يؤجل سعادته من أجل المال، لقد كانت أعوام الاغتراب جملة اعتراضية، لا محل لها من الإعراب لكنه حين اصطدم بما حدث لزوجته، تيقن أنها ليست جملة فحسب بل تمثل هذا الواقع الذي يحدد مصير أسرته، لقد قرر أخيرًا الهروب من كهف الاغتراب!

دق جرس الباب، ففتحت في دهشةٍ قائلة:

-(محمد)!

ثم احتضنته لتشعر بالدفء الذي افتقدته، لطالما شعرت بالندم أثناء سفره، ابتسم لها في رضا ليضمها قائلًا:

-خدت حقك يا (منال) ووريته الموت بعنيه وهو حي.

دفعته لتبتعد مرتعبة، وضعت كلتا يديها على فمها في خوفٍ وقلقٍ قائلة:

-قتلته؟!

ابتسم زوجها ثم دلف ليجلس على الأريكة في ارتياح، وحمل ولده

الصغير ليداعبه قائلًا:

-هو انا كان نفسي أقتله بس للأسف مقتلتوش، سبته لغيري يقتله.

ثم أردف قائلًا:

-موحشكيش بيتك يا (منال) ولا مرتاحة في القعدة هنا؟

خرجت والدتها من الداخل لترحب به في حرارةٍ وتجيبه قائلة:

-مين دي اللي مرتاحة؟! ده من يوم ما سافرت وهي عماله تعيط وتشكي و(محمد) سافر و(محمد) سابني، يلا أهو (محمد) جه، يا رب ترتاحي.

ثم أردفت مازحة:

-خد مراتك وروح، كفاية يا ابني.. عيالك جننوني.

ليضحك في عذوبة ناظرًا إلى زوجته التي تساقطت دموعها مبتسمة..

*****

فتاة في منتصف العشرينيات، قمحية البشرة، متوسطة الجمال، ترتدي ثيابًا متواضعة، تحمل حقيبة يد كبيرة، تحتوي أغراضها، وقد بدا عليها الشقاء، تقف أمام منزل السيدة (منيرة) على استحياء، دقت جرس الباب لتفتح لها (منيرة) قائلة:

-السلام عليكم يا مدام (منيرة).. أنا (سماح) اللي بعتني الأستاذ (صلاح) لحضرتك.

رحبت بها (منيرة) ودعتها للدخول قائلة:

-آه طبعًا عرفتك.. أهلًا يا (سماح).. ادخلي.

بعد أن أجلستها، اصطحبتها إلى غرفتها قائلة:

-دي هتكون أوضتك يا (سماح) وعمومًا ما تخافيش، مش هتتعبي معانا هنا، أديكي شايفة، مفيش حد هنا غيري، أنا والحاج (مسعد) جوزي بعد ما ابني الله يرحمه ما مات، يعني الشغل مش هيكون كتير، يا دوب الطبخ والغسيل والترويق الخفيف.

أومأت (سماح) في حزنٍ قائلة:

-الله يرحمه يا مدام، ويصبرك.. متقلقيش أنا تحت أمرك في اللي تطلبيه.

ربتت (منيرة) على كتفها قائلة:

-شكلك بنت حلال يا (سماح).. أنا هاسيبك بقا تغيري هدومك وترتبي حاجتك، وابقي حصليني ع المطبخ.

لتجيب (سماح) قائلة:

-من عينيا يا ست (منيرة).

*****

في بيت (حمزة)

-اتفضلي يا (حياة).. ادخلي ما تخافيش.

قالها (حمزة) بعدما أخرج (حياة) من المصحة وأقنعها بأن تأتي للعيش معه في بيت والده، استقبلها (الحاج حسن) ابن عم أبيها

قائلًا:

-ازيك يا (حياة).. نورتي بيتك وبيت أهلك يا بنتي.

لتجيب (حياة) قائلة:

-منور بوجود حضرتك يا عمي، وبوجودك يا طنط.

ابتسمت (مديحة) والدة (حمزة) ابتسامة مصطنعة قائلة:

-اسمي الحاجة (مديحة).. قوليلي يا خالتي، أصل معندناش هنا طنط دي، منورة يا حبيبتي، بيتك ومطرحك.

شعرت (حياة) بنفور والدة (حمزة) منها كأن الأيام لا تريد لها خيرًا أبدًا، تلقيها من قدرٍ مظلم إلى آخر أشد ظلمة لكنها حاولت أن تطمئن نفسها، فربما تتغير طريقتها تلك مع الأيام، ويكفيها معاملة (حمزة) ووالده لها، والتي تشعرها بالأمان الذي طالما بحثت عنه.. كان والد (حمزة) يعلم ما يجول في ذهن زوجته، ولذلك أخبر ابنه ألا يقص عليها ما يتعلق بقضية (حياة).. ويخبرها فقط أنها تركت بيت خالتها لتقيم معهم، وبالرغم من ذلك، أصابت (حياة) بعض العبارات اللاذعة التي كانت تلقيها والدة (حمزة) على مسمعها لتؤكد أنها لا ترغب في وجودها، خصوصًا أن (مديحة) كانت تخشى أن ينجذب (حمزة) إلى (حياة) ويتزوجها لأنها تنوي أن تزوجه ابنة خالته (ضُحى) وفي الوقت نفسه كانت (ضحى) تكن له مشاعر الحب منذ الصغر، تلك المشاعر التي نمت لتبني العديد من الآمال في كنف

خالتها وأمها حتى شعرت أن زواجها به أمر واقع وأنها قد امتلكت قلبه!

مر أسبوعان بينما كانت (حياة) تنعم بالهدوء والسكينة، تتجول أحيانًا بين الحقول مع دفترها وقلمها بعد أن نصحها (حمزة) أن تفرغ طاقتها على الورق، وحتى يتمكن أيضًا من معرفة ما يجول في خاطرها، كانت تعشق المساحات الخضراء حتى شعرت بالصدمة عندما تقلصت وحل محلها البناء من كل جانب، فتحت دفترها وكتبت ما يجول في خاطرها:

«أين الأرض يا خالتي؟! لطالما رغبت في زيارة القرية كي آتي إلى هنا، وتجاهد عيناي لتحتضن المساحات الخضراء التي تحيط بمنزلك، فلا تستطيع، أين ذهبت تلك المساحات؟! أين الحشائش التي كانت تداعب قدميّ حين أصر على الوقوف في منتصف الأرض وأحتضنها بين ذراعيّ؟! كنت أفعل فقط لأشعر ببعض الراحة، فراحتي وريحاني هنا، كنت أجلس فوق ما تشتهي عيناي من البساط الأخضر غير عابئة باتساخ ثوب العيد الأبيض المزركش، كم نسجت من العوالم والقصص الخيالية! وبالطبع كنت بطلة تلك الأحداث الخيالية التي تجتاحني كلما أتيت إلى هنا، الآن لم يبقَ منها شيء، أرى فقط جيوشًا من (الخرسانات) قد اجتاحتها، وقوافل إسمنتية طمست ملامحها فاندثرت، اليوم يا خالتي.. لم أعد أشتاق إلى القرية كي لا أتذكرها،

فلا أستطيع بعدها التخلص من فرط الحنين! ذهبت الأرض يا خالتي كما ذهب أفراد عائلتي، وذهبت سكينتي مع كل من ذهب!»

-يعني كنتِ بتيجي هنا بس عشان الزرع مش عشاني؟! وإيه كمان يا ست (حياة)؟!

قالها (حمزة) في نبرةٍ فكاهية.

حدقت إليه (حياة) في دهشةٍ حيث كان واقفًا خلفها، يقرأ ما تكتبه ليبتسم ثغرها بينما كان هناك عينان تراقبهما في غضبٍ، وتتوعد بالانتقام الشديد!

اقتربت منهما (ضحى) وقررت تفجير قنبلتها قائلة:

-انتِ بقى (حياة) اللي سمعت عنها؟! حلوة يا (حمزة).. مش كده؟

ليجيبها (حمزة) في غضبٍ قائلًا:

-(ضحى).. فيه إيه؟ اتكلمي كويس، يا تسكتي خالص.

تحدث (حمزة) غاضبًا بينما حاولت (حياة) الانسحاب من هذا الحوار الذي قد يثير الكثير من المشاكل لكن (حمزة) أمسك بيدها ليحتضن أصابعها أمام (ضحى) - التي اشتعل حقدها أكثر من ذي قبل - قائلًا:

-روحي بيتك يا (ضحى).. إحنا كمان مروحين، وبعد كده لما تتكلمي مع (حياة) تتكلمي عدل، مش عشان هي قريبتنا وضيفة عندنا وبس.. لأ، عشان كمان هتبقى مراتي.

ارتدت للخلف في ذهولٍ إثر سماع جملته كأنه طعنها بخنجرٍ حاد بينما ارتعدت (حياة) لتبتعد عنه محاولةً الهروب لكنه لم يتخل عن يدها التي تحتضن يده حين صرخت (ضحى) قائلة:

-هتتجوز دي؟! انتِ فاكرني على نياتي زي خالتي ومعرفش حقيقتها ولا إيه؟!

حدجها (حمزة) في غضبٍ قائلًا:

-قصدك ايه؟ ما تنطقي على طول.

أجابت (ضحى) في تحدٍّ قائلة:

-يعني أنا عارفة كل حاجة يا (حمزة).. عارفة انها اتجوزت ابن خالتها اللي في القاهرة وقتلته ودخلت المصحة، وعارفه انك كنت المحامي اللي دافعت عنها وخرجتها زي الشعرة من العجينة، أكيد خالتي لو عرفت كل ده، مش بس هترفض جوازك منها.. لأ، دي هتطردها بره البلد كلها يا متر.. ولا إيه؟

صفعها (حمزة) مما جعل (حياة) تنهار وتتذكر كل الآلام، تركته راكضة حتى وصلت إلى بيته ثم جمعت أغراضها في الحقيبة، وجميع ذكرياتها المؤلمة تتلاحق أمام عينيها كشريطٍ سينمائي، تنتوي الذهاب بلا عودة دون أن تنظر خلفها، أما (حمزة) فكاد يقتل (ضحى) حين جرها إلى بيتها قائلًا:

-غبية.. متخلفة، بوظتي كل اللي بعمله بقالي سنتين.. منك لله يا

شيخة.

شعرت (ضحى) بالقهر والغيرة، فصرخت غاضبة:

-بتضربني يا (حمزة).. هي حصلت تمد إيدك عليا عشان واحدة مجنونة؟!

فجذب خصلات شعرها قائلًا:

-المجنونة دي هي اللي هتجوزها غصب عنك وعن أمي وعن أي حد يقف في طريقي.. مش بعد ما عملت كل ده، تيجي واحدة زيك تبوظلي كل حاجة، قسمًا بالله يا (ضحى) لو قربتي ناحيتي أو بصيتي بس لـ (حياة) لادفنك حية وانا ضميري مرتاح!

مر وقت قصير لتثبت (سماح) مهارتها في أعمال المنزل حيث كانت تعمل في بيت السيدة (منيرة) بجد ونشاط حتى أنها امتلكت ثقتها سريعًا، وتركتها تحضر الطعام لها ولزوجها دون رقابة حيث أن المطبخ لا يحتوي آلات تصوير مراقبه كالتي في الردهة وباقي المنزل كما كانت (منيرة) تغدق الهدايا بالإضافة إلى راتبها الخاص للتعبير عن امتنانها، وقد أصبحت لا تستطيع الاستغناء عنها.. حتى طلبت (سماح) الإذن من السيدة (منيرة) بالخروج والذهاب إلى بيت أهلها لأنها اشتاقت إليهم كثيرًا، وافقت (منيرة) على طلبها هذا لكن أمرتها بالعودة سريعًا في اليوم نفسه، ذهبت (سماح) لكنها اتجهت إلى أحد النوادي العامة في قلب العاصمة حيث أخرجت جوالها لتقف

أمام النادي قائلة:

-الو.. أيوه يا دكتور (أشرف).. أنا واقفة بره النادي.. ماشي يا دكتور، مستنياك.

لحظات مرت ليخرج شاب في عقده الثالث، طويل القامة، قمحي البشرة، يرتدي زيًّا رياضيًّا، رافقها في سيارته حتى وصلا إلى مكانٍ بعيد نسبيًّا، ترجل من السيارة وطلب منها النزول أيضًا ليقوم بإخراج إحدى العلب الصغيرة في حجم قبضة اليد من جيبه، وقال في لهجةٍ آمرة حين قدم إليها العلبة:

-خدي دي، تحطي لهم منه، لكل واحد نص جرام في الأكل أو الشرب، أي حاجة، وبعدها تمسحي بصماتك من على كل حاجة بفوطة، وتكوني لابسه جوانتي في ايدك ولامة حاجتك وتخرجي من البيت بسرعة، واوعي تقربي الدوا ده حتى من مناخيرك، لا تموتي انتِ بدالهم.. انتِ فاهمة؟.. ولما تخلصي وتتأكدي انهم خدوه، كلميني ع الرقم اللي معاكِ عشان تاخدي حسابك.. اتفقنا؟

أومأت (سماح) موافقة دون أن تنبس ببنت شفة.

*****

في بيت (حمزة)

كانت (حياة) قد أوشكت على الخروج من المنزل حين حضر (حمزة) سريعًا ليجدها أمامه تحمل حقيبتها في إصرارٍ على الرحيل، وقف

(حمزة) أمامها شاعرًا بالخذلان ثم قال:

-مش هتمشي يا (حياة).. مش هاسيبك تبعدي عني، أنا مستاهلش منك كده.

وقفت أمامه خائفة، يترجم عقلها كلماته حين تذكرت زوجها السابق (سيف) لتتحول أحرف (حمزة) إلى:

«مش هاسيبك حتى لو مت، مش هاتبعدي عني وهاتفضلي خاضعة ليا، انتِ ملكي، انتِ متستاهليش واحد في مكانتي!»

فصرخت صرخة مدوية ثم سقطت فاقدة الوعي!!

حملها (حمزة) إلى الداخل، وطلب من والدته البقاء بجوارها حتى يحضر الطبيب، وقد أخبرها أنها تعاني من الضعف الشديد الناتج عن سوء التغذية، وهذا كل شيء..

دخل (حمزة) غرفة (حياة) ليحدق إليها فور خروج الطبيب، والذي أخبره بضرورة توفير جوٍّ هادئٍ لها، وإعطائها الدواء الذي كتبه في موعده حتى لا تسوء حالتها أكثر ثم خرج وأغلق الباب خلفه، جذب جواله ليهمس قائلًا:

-أيوه يا (أشرف).. فيه حاجة حصلت كده، مش عارف ده هيأثر ع الوضع ولا إيه!

ليجيبه الطرف الآخر قائلًا:

-فيه إيه يا (حمزة)؟! قلقتني.

أجاب (حمزة) في توترٍ:

-أصل.. في مشكلة حصلت و(حياة) صرخت وأغمى عليها، ومصرة تسيب البيت وتهرب، أنا لحقتها على آخر لحظة.

حدثه (أشرف) في نبرةٍ غاضبة قائلًا:

-انت بتستهبل يا (حمزة)؟! عايز تضيع كل تعبنا ع الأرض! عارف لو هربت هيحصل إيه؟!

أجاب (حمزة) في حنقٍ قائلًا:

-عارف يا (أشرف).. عارف، بقولك إيه، أنا هحاول أتصرف، وانت خلي (سماح) تنجز قبل ما يحصل حاجة تاني.

حاول (أشرف) استعادة هدوئه قائلًا:

-هتتصرف تعمل ايه يعني؟! اسمع، اديها الدوا اللي ادتهولك، مش اللي الدكتور كتبه، واديها المهدئ كمان، وعينك تفضل عليها طول الوقت، وأول (سماح) ما تخلص هاكلمك عشان نشوف هنعمل ايه.

أجابه (حمزة) قائلًا:

-تمام يا (أشرف).. سلام.

ثم أنهى المكالمة، وقد قرر أن يضع حدًّا لتلك التي تدعى (ضحى).. لا بد أن تبقى بعيدًا كي لا تفسد خطته.

*****

استغلت (سماح) فرصة انشغال السيدة (منيرة) بعدة أمور، وقامت

بوضع الدواء في طعامها وطعام زوجها (مسعد) لتخبئ الزجاجة في جيب سترتها سريعًا.. وضعت الطعام على المائدة سريعًا قبل أن يستفيق ضميرها الغافي، وبالرغم من أن قلبها كان ينتفض لكنها لم تتراجع.. وبعد انتهاء الغداء، صعدت (منيرة) مع زوجها إلى الأعلى ليستريحا في غرفتهما.. فعلت (سماح) ما أمرها به الطبيب (أشرف) فقامت بارتداء القفازين وإزالة البصمات الخاصة بها بعد تنظيف المكان والأطباق، وإزالة آثار جريمتها ثم ذهبت سريعًا لتجمع أشياءها في عجلةٍ وارتياب، كادت تغادر المنزل لكنها سمعت صوت صراخ في الأعلى، ففتحت الباب سريعًا وذهبت دون رجعة..

وصلت (سماح) إلى المكان الذي أمرها الطبيب (أشرف) بالمكوث فيه ثم قامت بالاتصال به وإخباره بما حدث قائلة:

-أيوه يا دكتور (أشرف).. أنا عملت كل اللي أمرتني بيه.

أجابها (أشرف) محاولًا إنهاء المكالمة سريعًا:

-حلو.. خليكِ في المكان اللي قلت لك عليه، واوعي تخرجي أبدًا غير لما اقولك، وحسابك هيوصلك لحد عندك.

وبعدما أنهى مكالمته، قام بانتزاع شريحة الهاتف وتحطيمها ثم إلقائها بعيدًا..

حين يجهل الإنسان حقيقة الدنيا رغم ما يحدث حوله من عبر وعظات، يصبح حينها أكثر تعلقًا وشغفًا بها، ويخيل له أن هناك الكثير أمامه

ليفعل، ولو كان بغيًا في الأرض.. وهناك في غرفة (منيرة).. كانت مع زوجها في الأعلى، يلفظان نفسهما الأخير، حاولت منيرة التحرك ومناداة (سماح) لإنقاذها، فما زالت ترغب في الحياة حتى بعد وفاة ولدها، ما زالت تريد الانتقام من (حياة).. ما زالت تبتغي الكثير وترغب في الحصول عليه، والاستماتة من أجله.. لكن بلا فائدة! أما زوجها، فكان على العكس تمامًا، منذ أن وقع فريسة لولدها على هذا الكرسي، فقد شغفه بالحياة، كان يأخذ العبرة والعظة مما يحدث حوله ويدعو الله كل يومٍ أن يخرجه من تلك الدنيا الملعونة في سلام، وقد كان..

*****

بيت (الحاج حسن) والد (حمزة)

نجح (حمزة) في احتواء (حياة) بعدما أعطاها الدواء الذي أوصاه به (أشرف) قائلًا:

-ها بقيتي أحسن دلوقت؟

لتجيبه (حياة) في استكانة قائلة:

-أيوه الحمد لله.

ثم اعتدلت في الفراش لتردف قائلة:

-(حمزة).. هي (ضحى) عرفت منين حكايتي؟

أجاب (حمزة) قائلًا:

-هاقولك بس اوعديني ما تضايقيش ولا تخلي ده يأثر عليكي، وافتكري إنه ماضي وراح خلاص.. اتفقنا؟

أومأت (حياة) موافقة ثم قالت:

-أوعدك يا (حمزة).

ليُخرج هاتفه من جيب بنطاله، ويقوم بفتح أحد الفيديوهات الموجودة على برنامج (اليوتيوب) لتشاهده ثم قال:

- للأسف (ضحى) عرفت من ده.. شافت البرنامج في التليفزيون.

حدقت (حياة) إلى الهاتف في ذهول، كيف يحمل الإنسان في قلبه تلك القسوة؟! كيف تفعل ذلك (خالتها) التي احتضنتها حين وُلدت؟! ألم تشفق عليها يومًا لأنها باتت يتيمة؟! ألم تشفق على ضعفها وامتهانها من قبل ولدها كل يومٍ بلا رحمة؟ لقد أصبحت روحها كمنزلٍ مهجور، تسكنه الأشباح!!

أجهشت بالبكاء، فشعر (حمزة) أنه أخطأ للمرة الثانية، وخالف تعليمات (أشرف) التي اتفقا عليها، وذلك باحتواء (حياة) حتى تكتمل مهمتهما، فاحتضنها سريعًا محاولًا تدارك الموقف، وكان له ما أراد، فقد ظلت مختبئة في صدره بعض الوقت حتى شعر بثقل جسدها لتنتظم أنفاسها، فوضعها في رقةٍ على الفراش ليحدق إليها شاعرًا بتأنيب الضمير لكن عقله استفاق سريعًا، فلا يجوز أن يتمكن منه مثل هذا الشعور حتى يحقق ما أراد، أخرجه من بين أفكاره، رنين هاتفه،

لقد كان الطبيب (أشرف) الذي تحدث قائلًا:

-(حمزة).. (سماح) خلصت، وزمان صحابك دلوقت في عداد الموتى، كده انا خلصت مهمتي، الدور عليك في الباقي.

ليجيبه (حمزة) قائلًا:

-ما تقلقش يا (أشرف).. الباقي سهل، المهم انت متأكد إن الاستركنين ده مش هيظهر في تشريح الطب الشرعي؟!

أجاب (أشرف) مؤكدًا:

-أيوه طبعًا متأكد، التقرير هيظهر الوفاة طبيعية نتيجة سكتة قلبية، وحتى لو شكوا في (سماح).. مفيش أي دليل مادي عليها، والبركة فيك، تحفظها تقول إيه بالظبط، المهم تكون مالي إيدك من (حياة) ومن ابوك، ومن موضوع الوصاية.

ليطمئنه (حمزة) قائلًا:

-ما تقلقش، قلت لك (حياة) فاقدة للأهلية بشهادة من المصحة بتاعتك، يعني غير مسؤولة عن تصرفاتها أمام القانون، وغير مؤهلة لتصريف أمورها المادية، وانا خلصت إجراءات وصاية والدي عليها، وهي الوريثة الوحيدة لخالتها، يعني بعد ما اتجوزها، كل حاجة هتبقى تحت إيدي رسمي، وكله بالقانون، وساعتها تاخد حقك اللي اتفقنا عليه.

أنهى (أشرف) مكالمته بعدما تأكد أن كل شيءٍ يسير كما تم التخطيط

له بينما ظل (حمزة) على جلسته يراقب (حياة).. هو حقًّا لا يريد إيذاءها بل ينتوي أن يكمل علاجها الذي أوقفه عمدًا بالاتفاق مع الطبيب (أشرف المدبولي) مدير المصحة الخاصة التي قد أودعها فيها بعدما قضت مدة عقوبتها في المصحة الحكومية، وذلك حتى يحصل على شهادة، تثبت أنها ليست في كامل قواها العقلية، وساعده في ذلك الإهمال والتعسف الموجودان في المصحة الحكومية، والذي أدى إلى تدهور حالة (حياة) ولم يجدِ نفعًا سوى تعافيها فقط من المخدر لكنه أدى إلى تفاقم حالتها النفسية، رغب أن يضمد جراح قلبها لكن بعد أن يمتلك ثروة خالتها اللعينة.. تحرك في هدوءٍ ليغادر الغرفة دون أن يزعجها لكنه لم يكن يعلم أنها ليست نائمة، فقط شعرت بالدفء الذي افتقدته في حضنه، فأغمضت عينيها لتنعم بالسكينة التي جردت منها حين استمعت إلى الحوار الذي دار بينه وبين طبيب المصحة لتسقط من فوق جبل خيالاتها وتصطدم بأرض الواقع المزري.. وهنا قررت أن تذهب إلى الجحيم حاملةً آلام قلبها وعقلها، أيقنت أنها لن تستطيع العيش في هذا العالم البائس، لقد اشتاقت إلى حضن آدمي يحتويها، اشتاقت إلى أمها وأبيها، ليتها ذهبت معهما بلا رجعة، لكنها لن تذهب بمفردها، لا بد أن تصطحب الجميع، ستطهرهم من خطاياهم ليصبحوا عبرة للباقين..

****

استيقظت (حياة) في اليوم التالي، تنتوي بدء النهاية التي وضعتها لنفسها، خرجت من البيت كعادتها بصحبة دفترها وقلمها، وعقلها يردد الاسم الذي سمعته أثناء حديث (حمزة) مع الطبيب (أشرف) وقد أخبرت الجميع أنها تود الجلوس بين الحقول لاستنشاق بعض الهواء كي تخرج من دوامة الحزن، جلست بين الحشائش لتسرد ما يجول في خاطرها، ربما للمرة الأخيرة.. تلتفت بين الحين والآخر يمينًا ويسارًا حتى تتأكد أنه لا يوجد من يراقبها أو يعلم ما تكتبه، فتضحك تارة وتبكي تارةً أخرى، تسترجع دفء حضن (حمزة) فتضحك حد النشوة ليعاودها الشعور بالألم بين يدي (سيف) فتصرخ وتبكي وتلقي بدفترها أمامها لترى وجه (حمزة) مبتسمًا، فتهدأ ويسكن جسدها لتعاود التقاط دفترها مرة أخرى، تسرد خذلان خالتها، وبغض زوجة عمها، وخيانة طبيبها، وفقدان عائلتها لتعود إلى حالة الهذيان والتخبط، فتذهب دون هدفٍ حتى تجتاز الأراضي الزراعية، فتصل إلى المحال المختلفة، يتوقف نظرها عند محل المبيدات الحشرية والبيطرية، تحدق إلى الأدوية البيطرية المتراصة داخل الأرفف حتى تنتبه إلى أحد الأقسام، فتجده مستقرًّا على أحد الأرفف، فتتسارع دقات قلبها، الاسم نفسه الذي يتردد في عقلها (الاستركنين) وكأن قوة لا إرادية تحثها على شرائه، فتفعل دون تردد لتعود للبيت ثم تدخل حجرتها لتخفيه داخلها، وتقوم بإخفاء دفترها أيضًا.. ظلت جالسة

في غرفتها لبعض الوقت حتى أتاها (حمزة) ليجدها في عالمٍ آخر، صامتة تحدق إلى الفراغ.. حدثها كثيرًا لكن دون جدوى، انتابه القلق من حالتها تلك، وقرر أن يستعين بشريك جُرمه (أشرف) لكنه تفاجأ بطلبها حين قالت:

-(حمزة).. أنا عاوزة كل الناس حواليا.. عاوزة أحس بالأمان.. بالعيلة!

-كلنا حواليكِ يا (حياة) ومعاكِ وبنحبك.. صدقيني.

ابتسمت في حزنٍ مفعم بالكثير من التكهنات ثم قالت:

-عاوزني أصدقك، نفذ لي طلبي اللي هاطلبه منك.. ممكن؟

ليجيب على الفور قائلًا:

-طبعًا ممكن.. قولي عاوزة إيه.

لتباغته بسؤالها:

-فاكر الدكتور (أشرف) اللي كان بيعالجني في المصحة؟

بُهت ثم أجاب قائلًا:

-آه طبعًا، ما انتِ عارفة إنه صاحبي.

شجعتها إجابته على إتمام طلبها قائلة:

-الدكتور ده ساعدني كتير لحد ما بقيت كويسة وخفيت، مش انا خفيت برضه يا (حمزة)؟

-آه طبعًا.

-طيب عاوزة أرد جزء من جمايله، ممكن تعزمه بكرة ع الغدا هنا، عاوزة كل الناس اللي بحبهم يكونوا حواليا، مامتك وباباك ودكتور (أشرف) وانت، ونتغدا كلنا سوا.. ممكن؟

تردد (حمزة) قليلًا قبل أن يوافق على طلبها، لقد راقته الفكرة كي يتسنى لـ (أشرف) الجلوس معها، ومعرفة تطورات حالتها النفسية..

*****

في اليوم التالي

قامت (مديحة) والدة (حمزة) بإعداد أصناف شتى من الطعام الشهي لاستقبال الضيف بناءً على طلب ابنها (حمزة) حين وقفت في المطبخ تسب وتلعن تلك التي ابتليت بها في بيتها، وخصوصًا بعدما أخبرتها (ضُحى) بما تعرفه عنها، وقد افتعلت (مديحة) الكثير من المشكلات جراء معرفتها حقيقة الأمر لكن والد (حمزة) خيرها بين تقبل وجود (حياة) وبين تطليقها، فالتزمت الصمت وخضعت لأمره دون نقاش بينما ظلت تدبر المكائد لإيذائها بشتى الطرق، ناهيك عن نظرات الكراهية والسباب الدائم دون أسبابٍ منطقية.. كانت (حياة) تقف بجوار المطبخ، تستمع إلى عبارات الإهانة التي تلقيها على مسمعها، تتلقى سبابها بوجهٍ صافٍ مبتسم وصدرٍ رحب، لا يعبر عما في داخله من آلام، وبعد مرور وقتٍ قصير، استغلت (حياة) انشغال والدة (حمزة) خارج المطبخ، وقامت بوضع الدواء الذي

ابتاعته في جميع أصناف الطعام ثم خرجت في هدوءٍ.. هدوء سيخيم على المنزل كاملًا بمن فيه!! وفي تلك الأثناء، كان (أشرف) جالسًا مع (حمزة) أمام البيت، يتهامسان حيث قال (أشرف):

-الحمد لله يا (حمزة).. الموضوع عدى على خير، والنيابة حفظت القضية.

ليجيب (حمزة) قائلًا:

-أنا هاستنى لما الموضوع يهدا، بعدها هاشوف موضوع الميراث ده، وانت تكمل اللي اتفقنا عليه يا (أشرف) ولا إيه؟

تساءل (أشرف) قائلًا:

-تقصد إيه؟ مش فاهم!!

اعتدل (حمزة) في جلسته ليواجهه في استنكارٍ قائلًا:

-انت نسيت ولا عامل مش فاهم؟! أقصد (حياة) طبعًا، انت وعدتني إنك تعالجها، مانا مش هتجوز واحدة مجنونة يعني!

سمعت (حياة) ما قاله، فشعرت كأن رصاصة قد استقرت في قلبها، وخصوصًا بعدما أجابه (أشرف) في ترددٍ قائلًا:

-أيوه طبعًا، أنا هعالجها بس ما اوعدكش يعني إنها ترجع طبيعية مية في المية زي الأول، ما تنساش إن الأدوية اللي كنت بديهالها في المصحة عندي، واللي وصيت الدكاترة يدوهالها في المصحة الحكومي كمان كملت عليها، ما عالجتهاش.

أجابه (حمزة) في غضبٍ قائلًا:

-يعني إيه الكلام ده؟! أنا ماليش فيه يا (أشرف).. زي ما عقدتها تحلها بمعرفتك، ده كان اتفاقنا من الأول، ولا نسيت؟!

وكزه (أشرف) ليحثه على التحدث في هدوءٍ كي لا ينكشف أمرهما قائلًا:

-وطي صوتك، انت اتجننت زيها ولا إيه؟ هتودينا في داهية، وبعدين اللّه يخليك ما تعملش فيها بريء وخايف عليها أوي، انت من الأول داخل الموضوع ده وحاطط عينك على فلوس خالتها، و(حياة) بالنسبة لك مجرد مصلحة مش أكتر.

أطرق (حمزة) ليتمزق قلب تلك المختبئة خلفهما، فأردف (أشرف) قائلًا:

-انت بتكلم دكتور نفسي يا (حمزة).. يعني يفهمك من عينيك، مثل على حد غيري، وعمومًا ما تقلقش، أنا عند كلمتي وهعالجها على قد ما اقدر، المهم حاول تخلص الورق بسرعة على قد ما تقدر، خلينا ننتهي بسلام.

حينها هرولت (حياة) إلى غرفتها، وأغلقت الباب خلفها بالمزلاج لتبكي في سكونٍ تام ثم قامت بإخراج دفترها لتبدأ بسرد ما تبقى من آلامها، تكتب لآخر مرة في حياتها، تدون اللحظات القادمة كأنها تراها رأي العين.. انتهت من الكتابة ثم وضعت الدفتر تحت وسادتها

لعل من يقرأه يومًا، ينال بعض العظة..

مر بعض الوقت ثم جلس الجميع على مقاعد مائدة الطعام، الطبيب (أشرف) وبجواره (مديحة) والدة (حمزة) بينما جلست (حياة) بجوار (حمزة).. أما (والده الحاج حسن) فقد كان في مهمة عملٍ خارج المدينة، ولم يتسن له حضور الغداء معهم، وأما عن إخوة (حمزة) الصغار، فقد أرسلتهم والدتهم إلى بيت خالتهم، وذلك كي يتسنى لها إعداد تلك الوليمة دون إزعاجٍ منهم.. بدأ الجميع في تناول الطعام، و(حياة) تنظر إليهم حين شرعت في تناول طعامها في بطءٍ كأنها لا تراهم، بدوا لها كأنهم ظلال أشباح، مر خمس دقائق ثم بدأت تعابير وجوههم في التغيير وينتابهم بعض الألم، ابتسمت (حياة) في امتعاض، فقد بدأت الآلام تغزوها هي الأخرى، مرت لحظات فقط حتى علت أنفاسهم حين جاهدوا لالتقاطها، ضحكت (حياة) في هستيريا وسط ألم الجميع، وبدت كأنها لا تشعر بآلامها ثم جلست أمام (حمزة) لتحدق إلى عينيه، وتعترف أمامه - قبل أن تلفظ نفسها الأخير - قائلة:

-أنا اللي حطيت السم في الأكل يا (حمزة) عشان أطهركوا وأطهر نفسي، أنا بحبك أوي يا (حمزة) رغم كل اللي عملته فيا، صدقتك في كل كلمة قلتهالي رغم إني اكتشفت ان كله كدب، تفتكر يا (حمزة) هندخل الجنة مع بعض؟ ولا هندخل النار؟

نظر إليها (حمزة) نادمًا، وقبل أن يلفظ نفسه الأخير، خرجت كلمة واحدة من بين ضلوعه، استشعر جميع حروفها قائلًا:

-سامحيني!

ثم شعرت بثقل جسده فوق جسدها، نظرت إلى الأعلى، فوجدت والدتها ووالدها، ينظران نحوها وبجوارهما شقيقها الصغير، يبتسمون في ودٍّ، وينادونها في شوقٍ قد فاق كل الحدود لتخبرها عينا والدتها دون حديث.. «قد طال غيابك يا صغيرتي، اشتقت إليكِ» بينما مد والدها يده مبتسمًا ليحثها على القدوم إليه سريعًا، وشقيقها الصغير يشير إليها بلعبة لامعة، والكثير من الحلوى، اتسعت ابتسامتها ودموع السعادة والألم، يشكلان لوحة على وجنتيها لتمد يدها باستماتة، تحاول ملامسة يد والدها الذي يخبرها بنظراته.. «آلامكِ الآن قد انتهت يا عزيزتي، انتهى الشقاء والمرض، ستتركين دنيا الظلام إلى دار النور، لن يكون هناك عذاب» حاولت اللحاق بيد والدها حتى تمكنت من احتضانها، لقد فاضت روحها إلى بارئها في سلام!

بعض النهايات مرة كالقهوة، لاذعة كالعلقم لكنها عبرة تنبه الآخرين، توقظ من تبقى لهم فرصة للنجاة، تخبرهم أن رحلة الحياة قصيرة، فلماذا نُلحق الأذى بالآخرين من أجل متعٍ شخصية فانية؟!

تمت بحمد لله تعالى



للترجمة والتدريب والنشر والتوزيع

زوروا موقعنا الإلكتروني

www.ibda3eg.com

info@ibda3eg.com

publishing@ibda3eg.com

dreidibrahim@gmail.com